د. الحسن بوتبيا

المنهج الإسلامي في رواية التراث الأدبي وتدوينه

المنهج الإسلامي
في رواية التراث الادبي
وتدوينه

الكتـــاب : المنهج الإسلامي
في رواية التراث الأدبي و تدوينه
المؤلـــف : د. الحسن بوتبيا
الهاتف : 024.31.37.47
الطبعـــة : الأولى 2008
رقم الإيداع القانوني : 1499 / 2008
ردمـــك : 6- 1- 8823- 9954
الطبـــع : المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش
الهاتف : 024 30 25 91 / 024 30 37 74
E-mail : iwatanya@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المنهج الإسلامي
في رواية التراث الادبي
وتدوينه

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين

تعود البداية في هذا العمل المختصر إلى بضع سنوات خلـــت، حـــين كنـــت مأخوذاً عليّ أمري أثناء تهيىء أطروحتي للـــدكتوراه، وكـــان موضـــوعها: « أثـــر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره إلى نهاية العـــصر الأمـــوي »؛ وكـــان جانـــب من البدايات الممهدة لها يقتضي البحث في منهج الروايـــة والتـــدوين عنـــد علمـــاء الإسلام، وأهمية جمع القرآن الكريم وكتابة المـــصحف في تأســـيس هـــذا المنـــهج، وما كان لذلك كله من أثـــر في روايـــة نـــصوص الرســـائل النثريـــة، وجمعهـــا وتصنيفها.

وقد أدى العمل في هذا الجانب وغـــيره إلى مناوشـــة قـــضايا ومـــشكلات عرضية، لم يكن السياق الأصلي للبحث يتوقف عليها كـــثيرا؛ فاكتفينـــا بإثارتهـــا، وأجلنا الوقوف عند جزئياتها وتفاصيلها إلى أن يـــأذن الله بـــالعودة إليهـــا، ومنـــها هذه القضية التي نعرضها في هذه الصفحات، وهي مـــن القـــضايا المـــثيرة للجـــدل بين العلماء والباحثين المهتمين بشؤون الرواية وتوثيق النصوص وتحقيقها.

فقد كان من جملة المسائل الممهدة التي عنينـــا بهـــا آنـــذاك تطـــور الكتابـــة الخطية عند العرب، ومحاولة الوقوف علـــى شـــذرات ممـــا كـــان مقيـــدا بهـــا في الجاهلية وصدر الإسلام، ومعرفة مدى استعانة الـــرواة بهـــا في تخـــريج النـــصوص وتصحيحها إلى جانب الرواية الشفوية؛ علـــى اعتبـــار أن الكتابـــة الخطيـــة هـــي الأداة الأولى في كتابة الرسائل الفنية وغيرهـــا مـــن الوثـــائق والمـــدونات، ومنـــها آيات القرآن الكريم وسوره في فترة نزوله، وهي الـــتي اســـتأنس بهـــا الـــصحابة في تدوين المصحف الشريف، إلى جانب الحفظ في الـــصدور الـــذي صـــار، بـــسبب القرآن، أصلا في كل رواية موثوق بها.

وقد انتهى بنا العمل في ذلك إلى تبيان معالم المنهج الإسلامي في رواية النصوص وتدوينها، وإبراز الأثر الفاعل الذي كان لتدوين القرآن في صياغته ووضع أسسه، وهو منهج السماع الجامع بين الرواية الشفوية والوثائق المكتوبة. وقد سبق المحدِّثون ومؤرخو القرآن والسيرة النبوية إلى استنباطه والعمل به، ولكنه لم يلبث أن عم سائر العلوم والمعارف الإسلامية، ومنها اللغة والأدب والتاريخ والأخبار وما إليها.

ولم يتسع المجال آنذاك لتفصيل القول في شمول هذا المنهج لكافة أصناف التراث الجاهلي والإسلامي، وعدم اقتصاره على ما له صلة قوية بالقرآن وتفسيره، والحديث وروايته، وبالشريعة وأحكامها؛ وأنه امتد أيضا إلى الأدب والأخبار، وقصص الحروب والأيام، وسير الشعراء والأبطال، وسائر الآثار المتوارثة؛ يستوي في ذلك ما ينتمي منها إلى الجاهلية وما ينتمي إلى الإسلام. وهي أصناف كانت روايتها والثقة برواتها، موضع أخذ ورد، وموطن مطاعن وشكوك، من فئات من المشتغلين بشؤون الرواية والتدوين في القديم والحديث، وهو نمط من تجزيء التراث وتمزيقه إلى أشلاء متنافرة، برغم وحدة أصوله وشروط انتقائه وتداوله.

وأقل ما في ذلك تجاهل هذه الوحدة، وشمولية هذا المنهج لسائر أصناف التراث، وخضوع معظم القدماء له في سائر مروياتهم ومصنفاتهم؛ ولكن الإخلاص له والالتزام بحدود مقتضياته، يختلفان من علم إلى علم، ومن لون من ألوان الثقافة والمعرفة إلى لون آخر، بحسب طبيعة كل علم وفن، وبحسب متطلبات إنتاج كل صنف وشروط الانتفاع به.

فلم يكن السند خاصا بأهل الحديث والفقه والسيرة وحدهم، ولا كان الجرح والتعديل ونقد الرجال مقتصرا عليهم؛ ولا كانت آفة الوضع والنحل من مثالب الرواية الأدبية وحدها، ولا كان أيضا تزييف النصوص وتصحيحها، بالنظر في لغتها ومتنها، مما يهتم به علماء دون آخرين. وإنما تلك كلها أدوات عملية مشتركة بين جميع العلوم والمعارف العربية الإسلامية، تهدف إلى توثيق النص وتخريجه أقرب ما يكون إلى صيغته الأصلية، وهي ناتجة

عن منطلقات نظرية، وممارسات عملية، كانت خلاصتها هذا المنهج المشترك بين الرواة لسائر أصناف العلم والمعرفة، ومنها الأخبار والأيام والأشعار وما إليها.

ولذلك كله عدنا إلى هذا الجانب لإضاءته وتفصيل القول فيه، وتعزيزه بما يتطلبه من الأدلة والشواهد والنصوص. وركزنا فيه على الآثار الجاهلية أكثر من غيرها، لغلبة التيار الأخباري عليها، وإسراع سهام الطعن والنكير إليها؛ ولأن التراث الإسلامي مفروغ من خضوعه لهذا المنهج، وأنه أوفر حظا منه، إذ كان الدافع الأول إلى ابتداعه والعمل به.

على أنه لا بد من التذكير هنا بأن التاريخ الجاهلي ملتحم بالتاريخ الإسلامي، وأن التراث الأدبي خاصة مشترك بينهما معا، وأن مقاييس الرواية والتدوين فيهما مشتركة موحدة. ولولا حاجة المسلمين إلى ذلك التراث في ثقافتهم وأدبهم، وفي خدمة كتاب الله وتيسير فهمه، لما كان لهم به عناية. ومن هذه الزاوية، تستمد العناية به - في ضوء هذا المنهج - مشروعيتها وأصالتها.

وقد نحونا في هذا البحث المتواضع منحى تطبيقيا، فعمدنا إلى مجموعة من الأخبار الموحدة الموضوع، ويجتمع فيها الشعر والنثر، واللغة والأدب، والتاريخ والحكي؛ واستطاع الرواة الجمع بينها، حتى صارت كأنها قصة متصلة ذات فصلين كبيرين مترابطين، يصلح كل منهما لأن يكون قصة مستقلة قائمة بذاتها، وهما قصة حرب يوم ذي قار، وسيرة حياة عدي بن زيد العبادي، الأمير الشاعر.

وهما معا تنتميان إلى الجاهلية برغم وقوع أحداثهما إبان البعثة المحمدية، فقد وقعتا قبل بداية حركة الفتوح، ولذلك كانتا مرشحتين للثقة بهما، لقرب رواتهما من عهد التدوين ومكانه في أرض العراق؛ ولأن شطرا من مصادرهما المكتوبة محفوظة مع تراث مملكة المناذرة في أديرة الحيرة وحصونها، فكانتا بذلك جامعتين بين الرواية الشفوية والوثائق المكتوبة.

ولم نسلك في عملنا مسلك ابن سلام وأضرابه من علماء البصرة، المنتصرين للرواية الشفوية، الرافضين الأخذ عن الصحف المقيدة، مخافة التصحيف والتحريف. وإنما نهجنا نهج عامة أهل الكوفة، الذين استأنسوا بهذه الوثائق ونقلوا منها، باعتبارهم ورثة التراث المكتوب، الذي انتقل إليهم من مدينة الحيرة المجاورة لهم. وقدوتنا في ذلك هو الإمام الطبري، شيخ المؤرخين، الذي أخذ عن هذه المدونات معظم ما يتعلق بالعلاقات الفارسية العربية قبل الإسلام.

وقد ضممنا إليه بحثا آخر يجري مجراه، ويوازيه ويكمله، وهو صنوه في سبب الاهتمام به وانفصاله عن أصله، تناولنا فيه إسهام كتابة القرآن وكتاب المصاحف في تطوير الخط العربي إلى أن صار أداة طيعة مكتملة، صالحة لتخليد الآثار بالتقييد في الصحف وما إليها، وبه وبفروعه كان العمل عند سائر الرواة والعلماء والكتاب في عهد التدوين؛ وهو بعنوان: **(أثر كتابة القرآن وتدوين المصحف في تطوير الخط العربي خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة)**.

والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مدخـــــل

تدوين التراث الجاهلي

تدل نصوص وأخبار عديدة على أن تدوين التراث الجاهلي، وما تبقى من أخبار القبائل العربية، والدول والحضارات القديمة، في جزيرة العرب وخارجها، سار جنبا إلى جنب مع تدوين التراث الإسلامي، من أحاديث وأخبار وسير وتراجم. وكان النصف الثاني من القرن الهجري الأول حافلا بالعلماء والرواة والمدونين لكلا الوجهين المذكورين للتاريخ العربي الإسلامي، وهو ما مهد لتوحيدهما واندماجهما في القرن الثاني. وكانت المدينة ودمشق مركزين علميين مهمين، تمّ فيهما هذا النشاط العلمي في بدايته، قبل أن ينتقل أكثره إلى العراق.

– الموضوعات الأخبارية والأدبية والحضارية التي عني بها الرواة:

وكان تدوين التراث الجاهلي، في جانب منه، امتدادا لتاريخ القبائل العربية البائدة، وهلاك بعضها وتفرق بعضها الآخر؛ ولمَا كان معروفا في العصر الجاهلي من رواية شفوية لأخبار العرب، في أيامهم وبطولاتهم، في حروبهم الداخلية والخارجية. وكان، في جانب آخر، ترددا لبقايا ما تساقط إلى الرواة، وقاوم عوامل الفناء، بشكل أو بآخر، من أخبار الأمم والحضارات القديمة، والأنبياء السابقين، واستقرار الديانة الإسماعيلية في جزيرة العرب، ومحاولة اليهود والنصارى النفوذ إليها والسيطرة عليها من الشمال والجنوب، في عهد الجاهلية المتأخرة.

وإذا كان المحدِّثون والفقهاء، وكتاب المغازي والسير والتراجم، قد نهضوا بتاريخ الرسول عليه السلام، وبتدوين تراث المسلمين الأوائل[1]؛ فإن تدوين التراث الجاهلي استأنفه رجال لم تكن لهم، في البداية، صلة قوية بالحديث والفقه، ولا بسيرة الرسول ومغازيه؛ بحكم بعدهم عن مكة والمدينة، وحداثة عهدهم بالإسلام، وتأخر اندماجهم في المجتمع الإسلامي الأول.

---

(1) انظر بحثنا : أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره ...ص 27 فما بعدها.

وقد عني بهذا اللون من التاريخ رواة وعلماء عديدون[2]، أبرزهم رجلان: عبيد بن شرية الجرهمي[3]، ووهب بن منبه[4].

قال ابن النديم، وهو يعرف بعبيد بن شرية:« أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يسمع منه شيئا. ووفد على معاوية بن أبي سفيان، فسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد، وكان استحضره من صنعاء اليمن. فأجابه إلى ما أمر، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية. وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن مروان، وله من الكتب: كتاب الأمثال، كتاب الملوك وأخبار الماضين »[5].

وروي عن وهب أنه كان يقول:« لقد قرأت اثنين وتسعين كتابا أنزلت من السماء، اثنتان وسبعون منها في الكنائس وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل »[6]. ونقل عنه سبطه عبد المنعم بن إدريس بن سنان كتبه ومروياته، من أخبار الأنبياء والعباد وأحاديث بني إسرائيل[7]، وعن طريقه انتشرت بين العلماء والرواة.

---

(2) انظر: (تاريخ التراث العربي) لفؤاد سزكين 1/ 417 فما بعدها، و(المعلقات سيرة وتاريخا) للدكتور محمد نجيب البهبيتي ص 128، 134 فما بعدهما

(3) عبيد بن شرية الجرهمي، من حكماء الجاهلية وخطبائها، عاش إلى أيام عبد الملك بن مروان، وكان من أهل اليمن، وله في أخبارها كتاب، ويلف الغموض والشك كثيرا من أخباره وآثاره. (الفهرست) ص 138، و(تاريخ التراث العربي) لفؤاد سزكين 419/1، و(الأعلام) 189/4.

(4) وهب بن منبه اليمني الصنعاني، ينحدر من أصل فارسي، ولد ومات بصنعاء ، وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. روى عن جلة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفق العلماء على توثيقه، وكانت له عناية خاصة بالإسرائيليات، وله أيضا كتاب في أخبار اليمن والحضارات البائدة. توفي سنة 114 هـ .(الطبقات الكبرى) لابن سعد 543/5 ، و(وفيات الأعيان) 35/6، و(تهذيب الأسماء واللغات) 149/1.

(5) الفهرست ص 138. وانظر (مروج الذهب) 40/3-41 . وقد طبع كتاب بحيدرآباد الدكن سنة 1347هـ بعنوان: (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها)، وهو ملحق بكتاب(التيجان في ملوك حمير) لوهب بن منبه.

(6) الطبقات الكبرى 543/5.

(7) المصدر السابق 361/7.

وقد كان العرب يتداولون قصصهم وأخبارهم في مجالس سمرهم ومنتدياتهم، كقصة سيف بن ذي يزن وسيل العرم، وكأخبار عاد وثمود. وكانوا يستمعون، فضلا عن ذلك، إلى أساطير العجم وملاحمهم التي نفذت إليهم من الحيرة وغيرها، وإلى قصص الأنبياء السابقين التي حملها اليهود والنصارى إلى جزيرة العرب.

فقد ورد أن النضر بن الحارث بن كَلدة، كان « من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار. فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا، فذكر فيه الله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا، والله، يا معشر قريش، أحسن حديثا من حديثه، فهلمَّ إليَّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار»[8].

وورد النهي بعد نزول القرآن عن قراءة كتب اليهود والنصارى وقصص الأنبياء المأخوذة منها. فقد نسخ رجل كتاب دانيال في عهد عمر، فأوجعه تهديدا وضربا، ولم يدعه حتى محاه؛ ثم قال: « انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب، ثم جئت به في أدم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا في يدك يا عمر؟ قال: قلت: يا رسول الله، كتاب انتسخته نزداد به علما إلى علمنا، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه »[9].

فكل ذلك دليل على شيوع أخبار العجم وأساطيرهم وقصص بني إسرائيل وغيرهم في جزيرة العرب قبل الإسلام؛ ولو ذهبنا نستقصي شواهدها

---

(8) السيرة النبوية لابن هشام 1 /321 ، وانظر ص 383 منه. وقد كان النضر من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان صاحب لواء للمشركين يوم بدر، وفيه أُسر ثم قتل. انظر (الأعلام) 33/8.

(9) تقييد العلم ص 51-52 ، وانظر أحاديث أخرى كثيرة في هذا المعنى في (تفسير ابن كثير) 467/2-468 عند تفسير قوله تعالى من سورة يوسف:« نحن نقص عليك أحسن القصص..».

وأمثلتها لاحتجنا إلى صفحات. و لم يلبث المسلمون أن أضحوا في حاجة إليها في تفسير ما ورد في القرآن الكريم عن الأمم البائدة من عرب وعجم، وما ذكر فيه من أخبار الأنبياء السابقين.

واحتاجوا أيضا إلى قصص العرب ومسامراتهم وأخبارهم في تفسير الأمثال والأشعار الجاهلية، ولذلك أقبلوا على تدوين ذلك كله، كما يدل عليه أمر معاوية بتدوين أخبار عبيد بن شرية.

وقد كان لمعاوية اهتمام كبير بأخبار العرب والعجم، وكان يستقدم الأخباريين والرواة فيسامرونه بها، ويجيبون على أسئلته عنها. فقد روى المسعودي أنه كان يخصص قسطا من ليلته، يجلس فيه « فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات »[10].

واقتدى به في ذلك الخلفاء من بعده، واعتنى أكثرهم بتدوينها وكتابتها، وكانت عندهم أداة مهمة من أدوات التربية والتثقيف. فقد روى ابن النديم أن خالد بن أبي الهياج أو غيره، كان « يكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد ابن عبد الملك »[11]، وأن عوانة بن الحكم « جمع ديوان العرب وأشعارها، وأخبارها وأنسابها، للوليد بن يزيد بن عبد الملك، ورد الديوان إلى حماد وجناد»[12]. وكان الزهري قد أودع خزانة الوليد هذا، من المرويات المدونة، ما حمل على الدواب بعد قتله[13]. وذكر ابن سلام في معرض حديثه عن

---

(10) مروج الذهب 14/3.

(11) الفهرست ص 15 .

(12) المصدر السابق ص 142 ومعه تراجم عوانة وحماد وجناد، وسيأتي الحديث عن عنايتهم بالتراث الجاهلي. وقد ورد هذا النص مضطربا بعض الشيء، ولعل الصحيح ما أثبتناه، وهو ما يقتضيه سياقه. انظر قراءة مغايرة له في (مصادر الشعر الجاهلي) ص 157 ، و (تاريخ التراث العربي) ص 594، و(المعلقات سيرة وتاريخا) ص 143.

(13) القسم الملحق بالطبقات الكبرى ص 170.

الشعر الجاهلي، أنه « كان عند النعمان بن المنذر منه ديـــوان فيـــه أشـــعار الفحـــول، وما مُدح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بني مروان، أو صار منه»[14].

ـعلم الأنساب من التراث الجاهلي، وعليه بني ديوان العطاء في الإسلام:

وهناك موضوع آخر من موضوعات الكتابة التاريخيـــة الـــتي اســـتند فيهـــا الرواة إلى التراث الجاهلي، وكانت، في جانب منها، امتدادا لـــه. وبـــسبب ذلـــك ظهرت عند المسلمين منذ عهد مبكر، كسائر مدوناتهم عـــن أمـــور الجاهليـــة؛ ثم شاع التأليف فيها بعد ذلك، وهو موضـــوع الأنـــساب، ومـــا يتعلـــق بهـــا مـــن المناقب والمثالب: « فهو علـــم العـــرب الـــذي كـــانوا بـــه يتفاضـــلون، وإليـــه ينتسبون»[15].

فقد كان للعرب في جاهليتهم عناية خاصـــة بأنـــسابهم القريبـــة والبعيـــدة، وكانوا يحفظونها عن ظهر قلب، ويحفظون ما يرتبط بهـــا مـــن المـــآثر والمفـــاخر، أو المعايب والمقابح، الـــتي كـــان يقـــوم عليهـــا المـــديح والهجـــاء في خطبـــهم وأشعارهم.

وكل ذلك استمر في الإسلام وتعاطاه الـــصحابة والتـــابعون. «فقـــد كـــان أبو بكر رضي الله عنه أنسب قريش لقريش ومضر، بل ولـــسائر العـــرب، وكـــذا ابن عباس ، وجبير بن مطعم، وعقيل بن أبي طالـــب، وكـــان مـــن بعـــدهم ابـــن شهاب الزهري، وابن سيرين، وكثير من التابعين »[16]. وكانـــت الحاجـــة تـــدعو إلى الخبرة بالأنساب « في كثير من المـــسائل الـــشرعية، مثـــل تعـــصيب الورثـــة، وولاية النكاح، والعاقلة[17]في الديات، والعلـــم بنـــسب الـــنبي صـــلى الله عليـــه وسلم، وأنه القرشي الهاشمي الذي كان بمكة، وهاجر إلى المدينة »[18].

---

(14) طبقات فحول الشعراء ص 25 ، وانظر (الخصائص) لابن جني 387/1.

(15) الإنباه على قبائل الرواة ص 13.

(16) تاريخ ابن خلدون 3/2 ، وانظر (السيرة النبوية) لابن هشام 12/1، والبيان والتبـــيين 323/2-324، و(تاريخ التراث العربي) 417/1، 450.

(17) عاقلة الرجل هم عصبته وقرابته من جهة الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ، وهي صفة للجماعـــة العاقلة.(اللسان) مادة (عقل).

(18) تاريخ ابن خلدون 3/2.

وعندما أراد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يؤسس ديوان العطاء، نظمه على أساس الأنساب، واستدعى له أمهر النسابين في زمنه، وقال لهم: «اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة. فلما نظر إليه عمر قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله »[19].

ثم توارث هذا الديوان من جاء بعد هؤلاء، وحافظوا على أنصبتهم فيه، من خلال قرابتهم لآبائهم وأجدادهم من السابقين إلى الإسلام الذين شملهم. فكان ديوان العطاء من أوكد الأسباب التي حملت علماء الأنساب على التأليف فيها وتدوينها، إلى جانب الحرص على الحظوة والشرف، بالقرابة من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الأوائل من المهاجرين والأنصار، فضلا عما سبق ذكره من العناية بها وتوارث حفظها في العصر الجاهلي.

غير أن حظ السبق إلى التصنيف فيها في القرن الهجري الأول _ بالرغم من عناية الأمويين بها، ووفرة العلماء بها في عهدهم[20] _ كان لجانب الهجاء والمفاخرة. فقد ذكر ابن النديم أن « أول من ألف في المثالب كتابا، زيادُ بن أبيه، فإنه لما طُعن عليه وعلى نسبه، عمل ذلك، ودفعه إلى ولده، وقال: استظهروا به على العرب، فإنهم يكُفّون عنكم»[21].

وأثمرت مجالس هشام بن عبد الملك، التي كان يعقدها للمفاخرة بالأنساب بين بعض علماء عصره، كتابا في مثالب العرب ومناقبها[22]. وكان الزهري أحد المصنفين الأوائل في الأنساب، فقد روي عن مالك أنه قال: «كان ابن شهاب من أعلم الناس بالأنساب »[23]. وقال: «لم يكن مع ابن شهاب كتاب، إلا كتاب فيه نسب قومه، يعني قريشا »[24].

---

(19) الطبقات الكبرى 295/2.

(20) انظر (البيان والتبيين) 318/1-324.

(21) الفهرست ص 137.

(22) انظر (مروج الذهب) 223/3.

(23) الإنباه على قبائل الرواة ص 13.

(24) المصدر السابق ص 13.

تلك الموضوعات المهمة من التراث الجاهلي، التي أسرع رواتها والعلماء بها، إلى تدوينها والتصنيف فيها، منذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول. ولا شك أن المحدِّثين كانوا أسبق من غيرهم إلى التصنيف التاريخي، وعلى أيديهم نشأ منهجه عند المسلمين. إذ بدأ ت جهودهم في كتابة مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيرته وأخبار صحابته، منذ عهده عليه السلام، فتأثر الأخباريون والأدباء المهتمون بأيام العرب وأنسابها وتاريخها القديم، بعمل المحدثين والفقهاء. وكذلك فعل من اهتم منهم بأخبار الفرس والحضارات القديمة والأنبياء السابقين؛ إلا أن أكثر مدوناتهم عن الجاهلية وما قبلها، طواها الإهمال والضياع، ولم يبق منها إلا ما تسرب، بشكل أو بآخر، إلى المؤلفات التاريخية الجامعة في القرن الثالث الهجري.

ـ توسع العناية بالتراث الإسلامي والجاهلي في القرن الثاني من الهجرة :

وفي القرن الثاني توسعت الكتابة التاريخية في الموضوعات الإسلامية، وساعد على ذلك انتقال الدولة من الأمويين إلى العباسيين، فنشط التصنيف والتأليف، وامتد إلى الأحداث الجديدة في العهدين الراشدي والأموي، وفي البلدان المفتوحة، وإلى أخبار الشعراء والخطباء والكتاب وغيرهم؛ فكثر الرواة والمدونون، وتشعبت الموضوعات أمامهم، وأخذت في التميز والانفصال، وانضمام الأشباه فيها إلى الأشباه.

وكان التصنيف في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم أول نوع تميز عن غيره[25]، ثم مضى على سمت العمل في روايتها وكتابتها روايةُ أخبار الخلفاء الراشدين والأمويين، وتدوين أخبار الفتوح والأحداث الواقعة في زمنهم. وكان ذلك عاملا على بعث حركة تاريخية مهمة كانت أساسا لأكثر ألوان الكتابة التاريخية والأدبية اللاحقة، ونبراسا مضيئا لها.

وبقدر ما تميز فقهاء المدينة وعلماؤها برواية الحديث النبوي، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه، واختصوا بكتابتهما وتدوينهما، تميز

---

(25) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 32 فما بعدها.

أهل العراق، وخاصة من الكوفة، بكتابة تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية وبداية الدولة العباسية. والسمة الغالبة على مؤلفاتهم هي الاختصار، وتدوين الحوادث والوقائع مستقلة بعضها عن بعض، في رسائل مفردة، وكتب صغيرة. وبرز في هذا المجال مؤلفون كثيرون أشهرهم ثلاثة: أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي[26](-157هـ)، وسيف بن عمر الأسدي (-180 هـ)[27]، وأبو الحسن المدائني (-225هـ)[28].

وعلى نحو من ذلك مضى التصنيف في تاريخ ما قبل الإسلام في القرن الثاني الهجري، فتناول أيام القبائل العربية وأشعارها وأدبها وحروبها الداخلية، وتاريخ اليمن القديم، وتحول أهلها نحو الشمال، وأخبار المناذرة والغساسنة، ونزاعهما مع فارس والروم. وامتد أيضا إلى الحضارات والدول القديمة، التي كان لها شأن في فارس والعراق والشام ومصر، ومنها أخبار الأنبياء والرسالات السماوية السابقة. وانضم إليها أيضا أنساب العرب، ومناقبها ومثالبها في الجاهلية والإسلام، بسبب ما بينها وبين المآثر والأمجاد من التقارب والترابط.

أبرز من عني من الرواة بالتاريخ الجاهلي:

ولم يختص في هذه المجالات مؤلف دون آخر، بل نكاد نجد أثرا منها عند أغلب مؤرخي القرن الثاني، على تفاوت بينهم في أنصبتهم منها. فقد كتب في هذه الموضوعات مؤلفون عديدون، أشهرهم وأكثرهم عناية بالجاهلية ثلاثة أعلام: هشام بن محمد بن السائب الكلبي(-204 هـ)، والهيثم ابن عدي (-207هـ)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (-211هـ).

---

(26) انظر ترجمته وأخباره وعناوين كتبه في (الفهرست) ص 142-143، و(معجم الأدباء) 17/ 41 فما بعدها، و(فوات الوفيات) 3/ 225-226.

(27) انظر ترجمته وأخباره في (الفهرست) ص 143، و(تهذيب التهذيب) 295/4، و(تاريخ الأدب العربي) لكارل بروكلمان 3/ 36.

(28) انظر ترجمته وأخباره وعناوين كتبه في (الفهرست) ص 153-158، و(تاريخ بغداد) 54/12، و(معجم الأدباء) 124/14.

فأما هشام الكلبي[29]فقد نشأ بالكوفة، وروى فيها عن جماعة من العلماء، منهم والده المشهور بتقدمه في علم الأنساب[30]. ثم انتقل إلى بغداد، وشاع فيها فضله وعلمه، وكان أكثر القدماء عناية بتاريخ ما قبل الإسلام، وبأنساب العرب وأيامها وتفرقها في البلاد. قال ابن النديم: إنه كان «عالما بالنسب وأخبار العرب وأيامها، ومثالبها ووقائعها»[31]. وله مصنفات كثيرة، ذكر ياقوت أنها تزيد على مائة وخمسين (150) مصنفا[32]. وأورد ابن النديم عناوين كثير منها، وصنفها على النحو التالي: كتبه في الأحلاف، كتبه في أخبار الأوائل، كتبه في ما قارب الإسلام من أخبار الجاهلية، كتبه في أخبار الإسلام، كتبه في أخبار البلدان، كتبه في أخبار الشعر وأيام العرب، كتبه في الأخبار والأسمار، كتبه في نسب اليمن، أنساب قريش من النسب الكبير..

إلا أن المحدِّثين تركوا روايته وشنعوا عليه، ورموه بالكذب. قال فيه الإمام أحمد: « إنما كان صاحب سمر ونسب، وما ظننت أن أحدا يحدِّث عنه»[33]. وقال ابن عساكر: « رافضي، ليس بثقة »[34]. ومع ذلك لم يعدم من يدافع عنه، فقد « كان يحيى بن معين يحسن الثناء عليه»[35]، وقال فيه ياقوت: « لله درُّه، ما تنازع العلماء في شيء من أمور العرب، إلا وكان قوله

---

(29) انظر ترجمته وأخباره وعناوين كتبه في (الفهرست) ص 146-149، و(نزهة الألباء) ص 89-90، و(تاريخ بغداد) 45/14، و(وفيات الأعيان) 82/6-84، و (معجم الأدباء) 19/ 287-292.

(30) محمد بن السائب الكلبي . انظر ترجمته وأخباره في (المعارف)ص 233، و(الفهرست) ص 145، و(وفيات الأعيان)309/4-314، و(ميزان الاعتدال) 3/ 556-559.

(31) الفهرست ص 146.

(32) انظر (معجم الأدباء) 19/ 288 ، و(ميزان الاعتدال) 305/4.

(33) تاريخ بغداد 46/14، و(ميزان الاعتدال) 304/4.. وفي (معجم الأدباء) 287/19 : وردت العبارة هكذا: « كان صاحب سير ونسب .. ». فهو يوثقه في الأنساب وهي تاريخ العرب.

(34) ميزان الاعتدال) 4/ 304.

(35) نور القبس .. ص 291.

أقوى حجة، وهو مع ذلك مظلوم، وبالقوارص مكلوم»[36]، وروى عنه العلماء والرواة وأكثروا، كالطبري وابن سعد وغيرهما[37].

ولا يشبه ابن الكلبي في الاهتمام بتاريخ العرب القديم، وبمفاخرهم ومثالبهم، سوى مواطنه المعاصر له: الهيثم بن عدي (ـ207هـ)[38]. فقد كان، مثله، راوية أخباريا كوفيا، وكان « عالما بالشعر والأخبار، والمثالب والمناقب، والمآثر والأنساب »[39]، و« نقل من كلام العرب وعلومها وأشعارها ولغاتها الكثير»[40]، وكان صاحب حماد الراوية « وراويته، وأعلم الناس به »[41].

وأورد ابن النديم أسماء عدد مهم من كتبه، أكثرها في مثالب العرب وأخبارها في الجاهلية والإسلام، ومنها: كتاب هبوط آدم وافتراق العرب في نزولها منازلها، وكتاب تاريخ العجم وبني أمية، وكتاب أخبار الفرس، وكتاب طبقات الأدباء والمحدثين، وكتاب تاريخ الأشراف، وكتاب المواسم، وكتاب الخوارج، وكتاب التاريخ على السنين، وغيرها كثير.

ولا يختلف عن ابن الكلبي إلا في اهتمامه الكبير برواية مثالب الناس والطعن في أنسابهم، فقد « أورد معايبهم وأظهرها، وكانت مستورة، فكُره

---

(36) معجم البلدان 158/2، وسيأتي الحديث عن اعتماده في شطر من مروياته على أصول مكتوبة. وانظر ما نقله الجاحظ في مقدمة (كتاب الحيوان 71/1_84) عنه وعن معاصره الهيثم بن عدي من وصف الخطوط القديمة والكتابة بها على المعابد والهياكل والآثار الضخمة. وهي مناظرة بين طرفين أحدهما ينتصر للشعر العربي والرواية الشفوية باعتبارهما أداة لنقل الحضارة و التاريخ، والآخر ومنهم هشام والهيثم ينتصر للكتابة وما إليها من آثار العمران، وليست نصا متصلا من كلام الجاحظ، ولا تمثل بالضرورة رأيه كما يعتقد غير واحد ممن نقل منها.

(37) انظر فهارس تاريخ الطبري (433/10)، وفهارس الطبقات الكبرى (201/9).

(38) انظر ترجمته وأخباره وعناوين كتبه في (الفهرست) ص 151-152، و(تاريخ بغداد) 50/14، و(معجم الأدباء) 304/19-310، و (وفيات الأعيان) 106/6-114.

(39) الفهرست ص 151.

(40) وفيات الأعيان 106/6، وانظر (معجم الأدباء) 304/19.

(41) الأغاني 70/6.

لذلك. ونُقل عنه أنه ذكر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بشيء، فحبس لذلك عدة سنين، ويقال إنه نُقل عنه زورا، ولَبّسوا عليه ما لم يقله..»[42].

فقد تعرض للسجن والهجاء والمعاملة بالمثل، واتهمه المحدّثون بالكذب والتدليس، ونهوا عن الرواية عنه[43]، ولكنهم وثقوه في الأخبار، فقال فيه أحدهم: «كان أخباريا علامة»[44]. وقال آخر: « ما أقل ما له من المسند، إنما هو صاحب أخبار »[45]. ولذلك نقل عنه الطبري والمسعودي وغيرهما[46].

أما أبو عبيدة معمر بن المثنى (ـ211هـ)[47]فيختلف عن صاحبيه بعض الاختلاف. فقد نشأ بالبصرة وأخذ عن علمائها، وكان جامعا لأكثر معارف عصره وعلومه. قال الجاحظ: «لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة »[48]. وقال ابن قتيبة: «كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها »[49]، وقال ابن النديم: «له علم الإسلام والجاهلية، وكان ديوان العرب في بيته »[50]. وقال ثعلب: « من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبي عبيدة، ومن أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني»[51].

---

(42) وفيات الأعيان 106/6.

(43) انظر (تاريخ بغداد) 50/41-51، و (لسان الميزان)210/6، و (ميزان الاعتدال) 324/4.

(44) ميزان الاعتدال 324/4.

(45) المصدر السابق 324/4، وانظر (معجم الأدباء) 304/19،

(46) انظر فهارس تاريخ الطبري (446/10) و مقدمة (مروج الذهب) 12/1.

(47) انظر ترجمته وأخباره وعناوين كتبه في (الفهرست) ص 85-86، و(نزهة الألباء) ص 104-111، و(مراتب النحويين) ص 77-79، و (وفيات الأعيان) 235/5-243، و(تهذيب الأسماء واللغات) 260/2.

(48) نزهة الألباء ص 105، و (ميزان الاعتدال) 155/4.

(49) وفيات الأعيان 235/5.

(50) الفهرست ص 85.

(51) تاريخ بغداد 55/12، و (نور القبس..) ص 182.

إلا انه كان، كالهيثم بن عدي، مهتما بمثالب العرب ومساوئها في الجاهلية والإسلام، وألف فيها أكثر من كتاب. ولذلك اهتم بالشعوبية وغيرها، وجفاه الناس، وكان كثير التصنيف: «لم يزل يصنف حتى مات..»[52]. وقد أثنى عليه المحدِّثون ووثقوا روايته، فقال فيه ابن حجر: «صدوق، أخباري»[53]، وروى عنه الطبري وغيره[54].

ولم يكن عمل هؤلاء العلماء والرواة مقتصرا على ما هو من التاريخ الجاهلي وحده، وإنما امتد إلى التاريخ الإسلامي كما ذكرنا، وامتد أيضا إلى موضوعات عديدة أخرى؛ منها ما هو من الأدب والأخبار الأدبية والأمثال والقصص، ومنها ما هو من الجغرافية، كأخبار البلدان والمناطق والأمصار، في طبائعها والمسافات بينها، وتأسيس المدن وخططها. ومنها ما هو من الطبقات والتراجم، والتأريخ لأنواع العلوم والفنون، والتعريف بها وبأصحابها، وتصنيفهم بحسب تخصصاتهم أو مواطنهم أو عصورهم[55]. فكل ذلك كانت نواته وبدايته في القرن الثاني الهجري وما قبله بقليل، على أيدي العلماء والمؤرخين الأخباريين المذكورين وغيرهم، ثم شاع فيها التأليف وكثر بعد ذلك، وتميز كل علم وفن بمادته وأصحابه المشهورين به.

ـ منهج الرواية عند المسلمين: الجمع بين الرواية الشفوية والوثائق المكتوبة:

وإذا كانت الرواية الشفوية أصلا أساسيا مشتركا بين العلماء والرواة المسلمين، على اختلاف الموضوعات والعلوم التي عُنوا بروايتها والتأريخ لها، معمولا بها عندهم جميعا، فإن الوثائق المكتوبة كانت سندهم الأقوى في تعزيزها وتأييدها، كلما كانت سبل الحصول عليها ميسرة متاحة[56]، اقتداء منهم بالطريقة المثلى التي دُون بها القرآن الكريم، وأخذا بمنهج السماع الذي تولد عنها[57].

---

(52) وفيات الأعيان 238/5.

(53) تقريب التهذيب 203/2. وانظر (معجم الأدباء) 155/19، و (ميزان الاعتدال) 155/4.

(54) انظر فهارس تاريخ الطبري 421/10.

(55) انظر ما سبق في ص 17.

(56) انظر نماذج منها في بحثنا: (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 25، 27-31، 37.

(57) انظر المرجع السابق ص 12 فما بعدها .

وذلك هو النهج نفسه الذي مضت عليه روايـــة الآثـــار الجاهليـــة، وأخبـــار الدول والحضارات التي تـــداولت الحكـــم والـــسيادة قبـــل الإســـلام في الـــشرق القديم؛ فقد تعززت فيها الرواية الشفوية بالنقوش والآثار الماثلـــة، وكتـــب اليهـــود والنصارى، ومدونات الأسر والقبائل، وما إليهـــا مـــن الأصـــول المـــشابهة. وقـــد دلت أخبار وهب بن منبه[58] على أنه استطاع أن يحل رموز كـــثير مـــن النقـــوش القديمة، ويترجم ما فيها مـــن عهـــود ووصـــايا وحكـــم إلى لغـــة عـــصره[59]. وكذلك فعل بعض أحبار اليهود والنـــصارى وغيرهـــم[60]، ثم شـــاعت الترجمـــة عن آثار الفرس واليونان والهنود منذ أواخر العصر الأموي.

على أن هناك مصدرا مهما لتاريخ ما قبـــل الإســـلام وأحـــوال العـــرب في جنوب جزيرة العرب وشمالها، هو مدينة الحيرة في عهـــد ازدهارهـــا، ومـــا تبقـــى من الآثار المكتوبة في حصونها وقصورها بعد سقوطها. فقد كانـــت هـــذه المدينـــة على إرث من الأمم والحضارات القديمة، انحـــدر إليهـــا بحكـــم موقعهـــا في بـــلاد العراق، ثم ورثته منها الكوفة بعد تأسيسها.

قال الطبري: « كانت الحيرة والأنبار بُنيتا جميعـــا في زمـــن بُختنـــصَّر[61]، فخربت الحيرة لتحول أهلها عنها عنـــد هـــلاك بختنـــصر إلى الأنبـــار، وعُمـــرت الأنبار خمسمائة سنة وخمسين سنة، إلى أن عُمرت الحـــيرة في زمـــن عمـــرو بـــن عدي[62] باتخاذه إياها مترلا، فعمرت الحـــيرة خمـــسمائة ســـنة وبـــضعا وثلاثـــين سنة، إلى أن وُضعت الكوفـــة، ونزلها الإسلام »[63].

---

(58) تقدمت ترجمته في ص 12 حاشية رقم 4.

(59) انظر (مروج الذهب) 166/3، و(تهذيب تاريخ دمشق) 198/1، و(نشأة الكتابة الفنية) ص208.

(60) انظر (السيرة النبوية) لابن هشام 208/1، و(الأخبار الموفقيـــات) ص 36، و(مـــروج الـــذهب) 370/1، 333، و(نور القبس ..) ص 277، و(تهذيب تاريخ دمشق) 369/1، 345/3، 140/7، و(معجم البلدان) 115/1.

(61) بُختنصَّر أو نَبوخذ نصَّر، كما أثبت ذلك البحث الحديث، هو أعظم الملوك الكلدانيين، وأوســـعهم نفوذا وشهرة، حكم ما بين سنتي (605-562) ق.م. اشتهر بتخريـــب أورشـــليم وأســـر اليهـــود وتشريدهم، وكذلك فعل بالفينيقيين في صور وغيرها. (الأمم السامية) لحامد عبد القادر ص 92.

(62) عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي، أول الملوك المناذرة في العراق، استأثر بالملك بعد أن قتل الزباء ملكة تدمر، ولم يكن يخضع للفرس. انظر (مروج الذهب) 90/2-98 ، و(في تاريخ العـــرب قبل الإسلام) ص 214 فما بعدها، و(الأعلام) 82/5.

(63) تاريخ الطبري 43/2.

وكانت في الجاهلية القريبة مركـــزا إداريـــا فارســـيا، وفي الوقـــت نفـــسه كانت ملتقى الحضارات والآثار العربية والأجنبية القديمـــة والحديثـــة، ونفـــذ منـــها إلى جزيرة العرب، بحكم علاقتها القوية بهـــا، شـــيء غـــير قليـــل مـــن التـــراث الفارسي والأجنبي[64]؛ واستمر ذلك في الإســـلام عـــن طريـــق الكوفـــة، الـــتي أسست على مقربة منها، وفيها تطور الخط العربي في مرحلـــة مـــن أهـــم مراحـــل تطوره، ثم انتقل منها إلى قريش، وإلى سائر القبائل العربية[65].

وقد نص غير واحد من العلماء والرواة على أن شطرا مـــن أخبـــار العـــرب وأنسابها وأشعارها، وخاصة ما كان منها ذا صـــلة بالمنـــاذرة ودولتـــهم، كانـــت محفوظة فيها، إلى أن اســـتخرجها هـــشام الكلـــبي وأضـــرابه مـــن الأخبـــاريين والمدونين، ونقلوا منها في القرن الثاني الهجري.

قال الطبري: « وكان أمر آل نصر بن ربيعة، ومن كـــان مـــن ولاة ملـــوك الفرس وعمالهم على ثغر العـــرب، الـــذين هـــم ببادیـــة العـــراق، عنـــد أهـــل الحيرة[66] متعالَما مثبتا عندهم في كنائسهم وأسفارهم. وقد حُـــدثت عـــن هـــشام ابن محمد الكلبي أنه قال: إني كنت أستخرج أخبـــار العـــرب وأنـــساب آل نـــصر ابن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى، وتاريخ ســـنيهم، مـــن بِيَـــع الحيرة، وفيها مُلكهم وأمورهم كلها »[67].

وأورد ابن جني خبرا مماثلا عن حماد الراوية، فقـــد روى بـــسنده إليـــه أنـــه قال: « أمَر النعمان فنُـــسخت لـــه أشـــعار العـــرب في الطنـــوج. قـــال: وهـــي

---

(64) انظر ما سبق في ص 13.

(65) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 5 فما بعدها. والبحث الآتي عن تطـــور الخط العربي بفضل كتابة القرآن.

(66) سماهم الأصفهاني في رواية مماثلة: علماء الحيرة، كما سيأتي.

(67) تاريخ الطبري 1/ 628. وقد أورد ابن خلدون عبارة ابن الكلبي بهذه الصيغة: « كنـــت أســـتخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة... من **كتبهم** بالحيرة ».تـــاريخ ابـــن خلـــدون 262/2. وانظر في مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ما نقله عن خبرة هشام بالخطوط القديمـــة. وقـــد سبقت الإشارة إليه في ص20 حاشية رقم36.

الكراريس، ثم دفنها في قصره الأبيض. فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له: إن تحت القصر كترا، فاحتفره، فأخرج تلك الأشعار، فمن ثم أهلُ الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[68].

وهنا يكشف ابن جني عن حقيقة كبيرة في مجال رواية النصوص الجاهلية، وهي وفرة ما بأيدي الكوفيين من التراث القديم بالقياس إلى ما رواه منه البصريون، وهو ما كان سببا قويا في إذكاء التنافس بين هؤلاء وأولائك، وأدى إلى تبادل التهم والطعون بينهم؛ وكان ابن الكلبي والهيثم بن عدي وحماد الراوية من ضحايا هذا التنافس، بما اتهموا به من الكذب والتزوير[69]. ويتأكد ذلك إذا تذكرنا ما جر إليه الاتهام بالوضع والنحل من التحرج عن النقل من الصحف، والتشنيع على من كان يأخذ منها، وكان أكثرهم من أهل الكوفة[70].

فهل كانت قصة يوم ذي قار، وما أُلحق بها من أخبار عدي بن زيد وأشعاره وتاريخ أسرته، منقولة عن هذه الأصول المكتوبة التي وقف عليها الرواة في قصور الحيرة وبيعها؟ فقد انفردت أخبار هذا اليوم، في طريقة روايتها، وفي شكلها وصيغها ومحتوياتها، بدقائق ومميزات وتفاصيل لا تتسع لها الرواية الشفوية وحدها، ولا نجدها مجتمعة في أي يوم آخر من أيام الجاهلية غير يوم ذي قار، ولا في حياة أيٍ شاعر آخر من شعراء الجاهلية غير عدي بن زيد العبادي.

ذلك ما سنبحث فيه في الصفحات التالية.

---

(68) الخصائص 287/1، وانظر (طبقات فحول الشعراء) ص 25، و (اللسان) مادة (طنج)، وسنعود إلى هذا النص والذي قبله في سياق آخر.

(69) انظر ما سبق في ص 18-21 ، وسيأتي الحديث مفصلا عن حماد الراوية.

(70) انظر (طبقات فحول الشعراء) ص 4، 11، 12 فما بعدها، و(الشعر والشعراء) ص 32-33، وبحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 11-12.

المصادر الشفوية والأصول المكتوبة
لقصة يوم ذي قار وحياة عدي بن زيد

الفصل الأول
أسانيد الروايتين وتحولات القصتين
على أيدي الرواة

المبحث الأول:

أسانيد الروايتين وصيغتهما النهائية في كتب التراث:

وردت قصة يوم ذي قار- منفردة أو مقترنة بقسط من ترجمة عدي بن زيد وأخباره المتضمنة لقصة حياته ومقتله - في أكثر من مصدر؛ لعل أهمها وأوفاها وأكثرها عناية بالضبط والتوثيق ثلاثة مصادر: نقائض جرير والفرزدق، وتاريخ الطبري، وكتاب الأغاني[71]. وما سواها نقول مخلة متفاوتة، مأخوذة منها أو من غيرها من المصنفات والشروح المتقدمة أو المتأخرة، وكلها تؤول إلى رواية ثلاث من كبار رواة القرنين الأول والثاني من الهجرة، هم حماد الراوية، وأبو عبيدة، وهشام الكلبي[72].

فقد ساقها صاحب (نقائض جرير والفرزدق) مسبوقة بهذا السند: «قال أبو عثمان: حدثنا أبو عبيدة، قال: حدثنا أبو المختار فراس بن خَنْدَق القيسي، قيس بن ثعلبة، وعدةٌ من علماء العرب قد سماهم فراس بن خَنْدَق- وأثبت الحديث الأصمعي في ما أثبته وعرّفه - أن الذي جرَّ يوم ذي قار قتلُ النعمان بن المنذر اللخمي عديَّ بن زيد العبادي.. »[73]. وتردد خلال متنها اسم أبي عبيدة واسم فراس على أنهما المصدر الأساسي للرواية، وذُكر معهما رجل آخر اسمه سليط، ورد ذكره ثلاث مرات، إحداها على هذا النحو: «قال سليط: فحدثنا أُسراؤنا الذين كانوا فيهم يومئذ، قالوا ..»[74]؛ كما ذُكر أبو عمرو بن العلاء عرضا.

وهي تتضمن في هذا المصدر خبر الحرب التي جرت في يوم ذي قار وحدها، مع إشارة مقتضبة في البداية، إلى أن سبب نشوبها هو قتل النعمان بن المنذر عديَّ بن زيد العبادي، وتخللتها شروح لغوية، وساق معها راويها

---

(71) نقائض جرير والفرزدق 2/ 638-639، و تاريخ الطبري 193/2-212 ، و الأغاني 97/2-156، 53/24-82.

(72) انظر ما سبق عنهم في ص 19 فما بعدها.

(73) نقائض جرير والفرزدق 638/2-639، وسيأتي تحليل هذا السند ودراسته.

(74) نقائض جرير والفرزدق 644/2.

الأشعار التي قيلت في ذلك اليوم، أو ذكره فيها الشعراء في الجاهلية والإسلام. وليس معها أي نص نثري متميز من خطبة أو رسالة أو مثل، وخُتمت بذكر أسماء القبائل والعشائر التي شهدت الحرب والاختلاف الوارد في ذلك. وهي تغطي حوالي إحدى عشرة صفحة[75].

واستهل الطبري (-310هـ) روايته لقصة يوم ذي قار بهذا السند الذي لا يختلف كثيرا عن سند راوي النقائض، قال: « فحُدثت عن أبي عبيدة معمر ابن المثنى، قال: حدثني أبو المختار فراس بن خَندَق أو خندقة وعدة من علماء العرب قد سماهم، أن الذي جرَّ يوم ذي قار قتلُ النعمان بن المنذر اللخمي عديَّ بن زيد العبادي .. »[76]. ثم أعرض عن هذا السند، وعن قصة الحرب إلى حين، واستطرد للتعليق على قتل عدي بن زيد، وليذكر أسباب قتله التي أهملها أبو عبيدة، فقدم لها بسند آخر عن هشام الكلبي، فقال: «كان سبب قتل النعمان بن المنذر عديَّ بن زيد، ما ذُكر لي عن هشام بن محمد، قال: سمعت إسحاق بن الجصاص - وأخذتُه من كتاب حماد، وقد ذكر أبي بعضه- قال: ولد زيد بن حماد بن زيد بن أيوب...ثلاثة... »[77].

فروى بهذا السند أن عدي بن زيد وإخوته عاشوا مع الأكاسرة، على نحو ما كان عليه والده وجده، ومعظم رجال أسرته؛ فتولوا لهم الأعمال، وترجموا لهم، وكتبوا لهم الرسائل وما إليها من شؤون الكتابة الديوانية؛ وأن عديا كان كاتبا شاعرا فصيحا، مقدما على إخوته عند كسرى، وأن المنذر ابن المنذر، ملك الحيرة، جعل ابنه النعمان في كفالة عدي هذا؛ فرباه وأحسن تربيته، وهيأه للملك بعد والده، فنجح في ذلك بالاحتيال على كسرى وعلى غير النعمان من أبناء المنذر، ومن كان إلى جانبهم من أشراف أهل الحيرة، وهو ما حملهم على تدبير المكايد لعدي عند صديقه النعمان بعد انفراده بملك الحيرة، ودسوا له ما حمله على استدعائه من فارس وإيداعه السجن، فقال

---

(75) المصدر السابق 2/638-648.

(76) تاريخ الطبري 2/193.

(77) المصدر السابق 2/193، وسيأتي تحليل هذا السند ودراسته.

– وهو محبوس – أشعارا كثيرة يستعطف بها النعمان، فلم تصنع شيئا، فكتب إلى أخيه في قصر كسرى، يرجوه أن يشفع له عنده، ففعل؛ فأمر كسرى بإشخاصه إليه، ولكن أعداءه اغتالوه في السجن بأمر النعمان، قبل تنفيذ أمر الملك الفارسي.

ثم أدرك النعمان خطأه، وندم على قتل عدي، واتفق أن تعرف على ابنه زيد بن عدي، فوجد فيه مخايل والده ونجابته، فبعث به إلى كسرى ليقوم مقام أبيه عنده، فأعجب به كسرى وقرَّبه، ووكل إليه أمور الكتابة وما إليها.

وسرعان ما تأججت في نفس زيد رغبةُ الثأر لوالده من النعمان. وتأتى له ذلك عندما همَّ كسرى بمواصلة عادة آبائه في البحث عنْ جواري له في أرجاء مملكته، وكانت أوصافهن المثالية مدونة محفوظة في دواوين أسلافه، ضمن رسالة من أحد أوائل المناذرة إلى أحد أجداده. ولم يكونوا يطلبونها من بلاد العرب، ولكن زيد بن عدي حمل ولي نعمته على البحث عن طَلِبَته عند العرب، وفي بنات النعمان بالذات؛ إلا أن هذا سرعان ما رفض تلبيةَ طلب سيده. ونقل زيد المترجم جوابه إلى كسرى محرَّفا – عن قصد – إلى ما فيه تطاول على كسرى نفسه، وهو ما حمله على استدعائه قصد الوقيعة به، فحمل النعمان أهله ونفائسه وسلاحه، وأخذ يطوف على قبائل العرب طالبا الحماية والوديعة، حتى قبله هانئ بن مسعود الشيباني المقيم بذي قار، فأودعه ودائعه ومضى إلى كسرى، فرمى به في السجن، وبقي فيه إلى أن أدركه أجله « وكان سبب وقعة ذي قار بسبب النعمان»[78].

وساق الطبري ضمن هذا الاستطراد نماذج من أشعار عدي بن زيد التي قالها في السجن، ورسالتين شعريتين متبادلتين بينه وبين أخيه أُبيٍّ الكاتب عند كسرى، ورسائل نثرية متفاوتة الطول والقصر، ثم عاد بعد ذلك إلى تكرار السند الأول الذي بدأ به، وإلى رواية قصة حرب يوم ذي قار، التي رواها عن طريقه عن أبي عبيدة كما أسلفنا. فأورد الرواية نفسها التي دونها راوي

---

(78) تاريخ الطبري 2/ 206.

النقائض بألفاظها وعباراتها وشواهدها الشعرية، ولم يحذف منها سوى تلك الأشعار التي ذكرت فيها يوم ذي قار بعد الإسلام. وكل ذلك يغطي حوالي عشرين صفحة[79].

أما صاحب الأغاني (– 356 هـ) فنجد عنده أوفى ترجمة لعدي بن زيد، وأخبارا عديدة عن حياته بروايات مختلفة كعادته في تراجمه[80]. ومع أنه يقر أن مقتله ومقتل النعمان بن المنذر كانا السبب في وقعة يوم ذي قار[81]، فإنه لم يسق قصة هذا اليوم مع أخبار عدي في الجزء الثاني من كتابه، وإنما ساقها منفصلة في الجزء الرابع والعشرين[82]، عندما ورد ذكر ذي قار عرضا ضمن شعر يتضمن صوتا من الأصوات المختارة التي بنى عليها كتابه. وكان صنيعه فيها كصنيعه في رواية أخبار عدي، وفي كتابه كله، من حيث تعدد الروايات، والعناية باستقصاء الجزئيات والتفاصيل.

استهل الأصفهاني حديثه عن عدي بن زيد بن حماد بن أيوب، كعادته في أكثر تراجمه، بسياقة نسبه الذي رفعه إلى نزار، ثم بمكانته الشعرية ومواقف النقاد والرواة من شعره وروايته، ثم بدأ أخباره بهذا السند: « قال ابن الأعرابي فيما أخبرني به علي بن سليمان الأخفش، عن السكري، عن محمد بن حبيب، عنه وعن هشام الكلبي عن أبيه، قال: سبب نزول آل عدي بن زيد الحيرة أن جده أيوب.. »[83].

فروى عن طريق هذا السند قصة أسرته وآبائه، منذ نزول جدهم أيوب بالحيرة، وصلات أولاده بملوكها وبالأكاسرة، وما كان لهم فيها من الشرف وولاية الكتابة وما إليها من شؤون السلطان. ومنهم من تولى إمارة الحيرة إلى جانب المناذرة في حال ضعفهم، إلى أن شب فيهم عدي، وكان في نبل آبائه

---

(79) المصدر السابق 2/ 193-212.

(80) كتاب الأغاني 2/97-156.

(81) المصدر السابق 2/ 128.

(82) نفسه 24/ 53-82.

(83) الأغاني 2/ 98 ، وسيأتي تحليلنا لهذا السند.

وفطنتهم، وتعلم الكتابة بالعربية والفارسية، وقال الشعر، وفاز برضى كسرى فضمه إلى صحابته، فكان أول من كتب بالعربية في ديوانه، وبعثه في سفارة مهمة إلى ملك الروم، ثم عاد بعدها إلى الحيرة، ولكنه فضل حياة اللهو والصيد، وبقي كذلك إلى ما شاء الله.

وكل هذا القسم من حياة عدي وأخباره لم يرد في (شرح النقائض) ولا في (تاريخ الطبري).

ثم انتقل المؤلف إلى الجزء الذي أورده الطبري، ولم يذكره راوي النقائض كسابقه، وهو الخاص باحتيال عدي عند كسرى في تولية النعمان بن المنذر مُلك الحيرة بعد والده، وما تلا ذلك من ألوان الدسائس والسجن والقتل، التي أودت بحياة عدي والنعمان معا كما أسلفنا، واستهله بالسند نفسه الذي رواه به الطبري مع اختلاف يسير، وهو قوله: « قال ابن حبيب، وذكر هشام ابن الكلبي عن إسحاق بن الجصاص وحماد الراوية وأبي محمد بن السائب، قال: كان لعدي بن زيد أخوان..»[84].

إلا أن روايته تختلف أحيانا عن رواية الطبري اختلافات واضحة، في بعض العبارات، وبزيادة بعض التفاصيل، وإضافة بعض نصوص الأشعار والمحاورات والرسائل. وعندما يتسع الخلاف بين الروايات ينبه على ذلك ويضيف الرواية المخالفة، وذلك كقوله: « هذه رواية الكلبي، وأما المفضل فإنه ذكر..»[85]، فأضاف تفصيلات ونصوصا شعرية لم ترد عند الطبري. وقوله: « ثم ذكر من قصة النعمان وإخوته وعدي بن مرينا مثل ما ذكره ابن الكلبي، وقال المفضل خاصة..»[86]. وقوله: « هكذا ذكر العلماء من أهل الحيرة، وقالت رواة العرب.. »[87]. وعندما تتفق الروايات ينبه على ذلك أيضا بقوله: « قالوا جميعا »[88]، وكذا عندما ينفرد أحد الرواة بجانب خاص

---

(84) نفسه 105/2. وسيأتي تحليلنا لهذا السند.

(85) المصدر السابق 2/ 115.

(86) المصدر نفسه 115/2.

(87) نفسه 133/2.

(88) نفسه 120/2،108.

يقدم له بمثل قوله: « وقال حماد الراوية في خبره »[89]، وقوله: «وقال حماد الراوية والكوفيون ..»[90]، وقوله: « وقال ابن الكلبي..»[91].

ولم يكتف أبو الفرج بقصة حياة عدي بن زيد ومقتله ومقتل صديقه النعمان فحسب،كما فعل الطبري، وإنما أضاف أخبارا عديدة عن زواجه بهند بنت النعمان وقصتها معه، ومصيرها بعد وفاته، وعن سعيه في تنصر النعمان؛ وما كان لموعظته إياه من سيرورة، ومن أثر في بعض الأدباء والملوك من بني أمية.

ثم استطرد لتفسير علَمَين وردا في قصيدة عدي التي وعظ بها النعمان، وذكَّره فيها بخراب الآثار وفناء الدنيا، وهما حصن الحَضْر، والقصر المعروف بالخورنق[92]. فذكر قصة بنائهما وعمارتهما، ثم خرابهما بعد ذلك بسبب ما حل بصاحبيهما من بلايا ومحن، وهما ينتميان إلى فترة متقدمة من فترات تاريخ الحيرة والعراق، في علاقتهما بالحكم الفارسي والرومي. ثم ختم أخبار عدي بن زيد بنماذج كثيرة من أشعاره التي غنى فيها المغنون، واقترنت بسبب ذلك بعدد من الألحان المتداولة عند القدماء.

وكانت روايته في هذه الإضافات، وخاصة ما تعلق منها بالجاهلية، عن هشام الكلبي وأضرابه من الرواة الكوفيين. واتفقت روايته لأخبار حصن الحضْر وقصر الخورنق وصاحبيهما مع رواية الطبري في سندها ومتنها اتفاقا يكاد يكون تاما[93].

أما قصة يوم ذي قار، التي رواها الأصفهاني منفصلة في الجزء الرابع والعشرين كما قدمنا، فقد استهلها بهذا السند: «أخبرنا بخبرها علي بن

---

(89) نفسه 126/2.

(90) نفسه 127/2.

(91) نفسه 127/2.

(92) انظر تعريفا مفصلا بهما وبتاريخهما في كتاب (في تاريخ العرب قبل الإسلام) لسعد زغلول عبد الحميد ص 159-162، 393- 395.

(93) قارن بين (الأغاني) 140/2-146، و(تاريخ الطبري) 65/2-68، 47-50.

سليمان الأخفش، عن السكري، عن محمد بن حبيب، عن ابن الكلبي، عن خراش بن إسماعيل. أضفت إلى ذلك رواية الأثرم عن أبي عبيدة، وعن هشام أيضا عن أبيه، قالوا.. »[94].

ثم ساق أخبار الحرب بمقدمات وتفاصيل وخواتم لم ترد في (كتاب النقائض) ولا في (تاريخ الطبري)؛ وفيها نصوص أشعار ورسائل مكتوبة وأمثال وخطب ومحاورات مسجوعة، ومعها شروح لغوية، وتعاليق للرواة عندما ينفرد أحدهم بزيادة أو تفصيل عن أصحابه. ومعها أيضا أسماء رجال القبائل، منسوبين إلى أصولهم، ومنسوبة إليهم أعمالهم أثناء القتال، على نحو أكثر دقة مما رأينا في الروايتين الأخريين.

أما نصوص الأشعار التي تخللت القصة وختمت بها فهي كثيرة جدا، ولا وجود لأغلبها في المصدرين الآخرين، وهي تغطي وحدها حوالي ثلاثين صفحة، في حين تغطي أخبار عدي بن زيد وترجمته حوالي ستين صفحة[95]

فكيف نفسر اتساق هذه الروايات وتوافقها عندما تتفق وتتآلف؟ وكيف نفهم اختلافها وتفاوتها عندما تختلف وتتباين؟

لاشك أن سبب ذلك يعود إلى اختلاف الأصول التي أخذت منها، وإلى تحولاتها في أيدي الرواة؛ وأن مفتاح معرفته يكمن في دراسة الأسانيد المقترنة بها، والوقوف على ما كان لرجالها من آثار جاهلية مدونة، ومن عناية بالتراث المكتوب، إلى جانب الرواية الشفوية التي هي الأصل[96]. ثم تتبع بعض الدلائل والقرائن التي تستفاد من ثنايا الأخبار، وما تضمنته من نصوص وتفاصيل وأساليب، تلقي أضواء على ما بينها من اختلافات، وعلى أصولها الأولى التي أخذت منها.

وعلى الرغم مما يكتنف أسانيد الرواية الأدبية والأخبارية من مخاطر وصعوبات، بسبب ما أصابها من إعراض بعض القدماء وقلة عنايتهم، وما

---

(94) الأغاني 53/24-82. وسيأتي تحليلنا لهذا السند.

(95) المصدر السابق 97/2-156، 53/24-82.

(96) انظر ما سبق في ص 22-23.

أحاط بها وبرجالها بسبب ذلك وغيره من شكوك ومطاعن[97]، فلا مفر من الاستعانة بها عندما تتوفر أمام الدارس، كما هو الشأن في موضوعنا هذا، بل إن ذلك ليعتبر في مثل هذه الحالة مما يضن به الإنسان، ويحرص على الاستفادة منه بأكثر من وسيلة ممكنة.

المبحث الثاني:

أسانيد رواية أبي عبيدة ومصادرها الشفوية:

عندما نتأمل سند راوي شرح النقائض الذي روى به قصة يوم ذي قار وحدها، مكتفيا بالإشارة في بدايتها إلى أن سببها الأول هو قتل عدي بن زيد العبادي[98]، نجده مفتتحا بأبي عثمان المازني (-249هـ)[99]، باعتباره الراوي المباشر عن شارح النقائض. وهو مشهور باللغة والنحو أكثر من غيرهما، ولم يُذكر في آثاره أي تأليف في الأيام وما إليها، ولكنه وُصف بأنه كان « مع علمه بالنحو كثير الرواية »[100].

ومعلوم أن الحدود الفاصلة بين تخصصات القدماء لم تكن دقيقة، وغالبا ما تكون منعدمة، وخاصة في هذا العهد المتقدم الذي تأسست فيه العلوم الإسلامية والثقافة العربية. ولذلك نجد أكبر شيوخ المازني هو أبو عبيدة معمر بن المثنى، الذي كان أكثر علمه وروايته الأيام الجاهلية كما أسلفا[101]،

---

(97) انظر ما سبق في ص 19 فما بعدها، وبحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 43 فما بعدها.

(98) انظر ما سبق في ص 31.

(99) انظر ترجمته وأخباره مفصلة في (الفهرست) ص 90، و(نزهة الألباء) ص 182، و(طبقات الزبيدي) ص 87، و(معجم الأدباء) 107/7-128.

(100) نزهة الألباء ص 186، وانظر (معجم الأدباء) 123/7.

(101) انظر ما سبق عنه في ص 21-22. ونحن نتحفظ في نسبة شرح النقائض المعروف كله إلى أبي عبيدة، لأن الرواية فيه منسوبة إلى غير واحد من علماء القرنين الثاني والثالث، وإن كان من الثابت عن ابن النديم أن أبا عبيدة قام بجمعها، وربما شرحها شرحا مختصرا بالإملاء على تلاميذه، فأضاف إليه الرواة من بعده. قال ابن النديم في ذلك: « نقائض جرير والفرزدق، عملها أبو عبيدة معمر بن المثنى، ورواها الأصمعي دون تلك الرواية، وعملها أبو سعيد الحسن بن الحسين فجودها، وقد عملها أبو المغيث الأودي؟ ، رواها عنه ثعلب » الفهرست ص 231. ويظهر أن جامع الأيام المنسوبة إلى أبي عبيدة الدكتور عادل جاسم البياتي، لم يقف على هذا النص الذي ورد في ترجمة أبي سعيد السكري

وهو الذي روى عنه قصة هذا اليوم. وقد أخذها أبو عبيدة من جهته، كما جاء في السند، من« أبي المختار فراس بن خَنْدَق القيسي، قيس بن ثعلبة، وعدة من علماء العرب قد سماهم فراس بن خندق، وأثبت الحديث الأصمعي فيما أثبته وعرّفه.. »[102].

ولا نعرف عن فراس هذا سوى ما ورد عنه وعن قبيلته في تاريخ الطبري وكتاب الأغاني من روايات وإشارات في مواضع متفرقة. فالطبري لم يرو عنه سوى هذا الخبر، ولكنه أشار إشارات مختلفة إلى قبيلته بني قيس ابن ثعلبة، وحضورها القوي بزعامة رجال منها في أحداث الإسلام والدولة الأموية. فقد كانوا يسمون اللهازم[103]، وكان منهم أبو فديك الخارجي[104]، وشاركوا في ثورة ابن الأشعث[105]، وفي ثورة يزيد بن المهلب[106]. وذكر صاحب الأغاني أنهم انتصروا في الجاهلية على بني شيبان في يوم عين محلم[107]، وأنهم ارتدوا في عهد أبي بكر بعد إسلامهم، فتولى قتالهم العلاء بن الحضرمي[108].

وأفاد أبو الفرج أيضا إفادات مهمة أخرى عن الرجل وقبيلته بني قيس ابن ثعلبة، وصلتهما بحرب يوم ذي قار. فقد ورد ذكرهما معا في ترجمته

=لا في ترجمة أبي عبيدة، فجزم بأن محمد بن حبيب (ـ 245هـ) هو الذي عمل النقائض، وأدخل كتاب الأيام لأبي عبيدة في شرحها، إذ هو من أبرز الرواة عنه في موضوع الأيام وأخبار العرب وما إليها. انظر (أيام العرب قبل الإسلام ص 22-25). وهذا اجتهاد في غير محله، فالنقائض الأموية كانت موضع عناية غير واحد من علماء اللغة والأدب والتاريخ، بالجمع والشرح والتفسير، ومنهم ابن حبيب.

(102) انظر السند كاملا في ص 31.

(103) في تاريخ الطبري 515/5 : «اللهازم هم بنو قيس بن ثعلبة وحلفاؤهم». وفي القاموس المحيط (لهزم): «اللهازم لقب بني تيم الله بن ثعلبة»، فهم أبناء عم بني قيس بن ثعلبة. انظر (جمهرة الأنساب) ص 517 فما بعدها، ولعل اللقب يطلق عليهم جميعا.

(104) المصدر السابق 174/6.

(105) المصدر نفسه 344/6.

(106) نفسه 527/6 ، 580، وانظر المزيد من الإشارات إليهم في (تاريخ الطبري) بواسطة الفهارس 481/10.

(107) الأغاني 155/9.

(108) المصدر نفسه 256/15_273، وأيضا (تاريخ الطبري) 301/3 فما بعدها.

للأعشى الذي ينتسب إلى هذه القبيلة، وكان شاعرها في الجاهلية[109]، وروى فيها خبرين أحدهما «عن أبي عبيدة عن فراس بن الخندق »[110]، والآخر عن «عبدة بن عصمة عن فراس بن خندق عن علي بن شفيع»[111]، وساق على إثره حكاية طريفة عن علي بن شفيع هذا، كشف فيها أنه « من بني ثعلبة، بن عكابة، بن صعب، بن علي، ابن بكر بن وائل»[112]. وفسر في رواية أخرى هذا السند والعلاقة القائمة بين رجاله، ثم بينهم وبين علي بن شفيع، فقال: «حدثني عبدة بن عصمة ابن معبد القيسي (نسبة إلى بني قيس ابن ثعلبة)، قال: حدثني جدي أبو أمي فراس بن خندق، عن أبيه، عن جده علي بن شفيع قال.. »[113]. وروى بسند آخر عن « مشايخ بني قيس بن ثعلبة »[114].

ففراس إذاً هو فراس بن خَندَق، بن علي بن شفيع... من بني قيس بن ثعلبة، بن عكابة، بن صعب، بن علي، بن بكر بن وائل. وقد نص الراوي في السند على قبيلته بني قيس بن ثعلبة الربعية للتمييز بينها وبين بني قيس عيلان المضرية[115]، ولإشعار القارئ والمستمع بالعلاقة القائمة بين فراس والحدث المروي. وقد كان جده علي بن شفيع المروي عنه أعلاه معاصرا للفرزدق[116]

وعن طريق فراس نفسه روى الطبري عن أبي عبيدة قصة يوم ذي قار، إلا أنه لم يذكر اسم قبيلته في سند روايته عنه، ولا أشار إلى علاقة الأصمعي بقصة هذا اليوم[117]؛ في حين رواها الأصفهاني عن طرق أخرى منها طريق

---

(109) انظر سلسلة نسبه في (الأغاني) 108/9.

(110) الأغاني 113/9، وورد اسم الخَندَق وخَندَق في(الأغاني) بالفاء، وفي (شرح النقائض) و(تاريخ الطري) بالقاف، ورجحنا روايتهما، لأن (خِندِف) علم على امرأة معروفة لم يشتهر به أحد بعدها فيما نعلم.

(111) المصدر نفسه 109/9.

(112) نفسه 109/9.

(113) نفسه 340/22.

(114) نفسه 113/9.

(115) انظر (جمهرة الأنساب) لابن الكلبي ص 311 ، 517، فما بعدهما.

(116) الأغاني 22/ 340.

(117) انظر نص السند في ص 32.

أبي عبيدة نفسها، ولعلها كانت أهونها عنده كما سنرى؛ ولم يذكر في أي منها اسم فراس، ولكنه أفاد فائدة جليلة في متن روايته عن علاقة قومه بني قيس بن ثعلبة بحرب يوم ذي قار، وموقفهم منها، فقال: «فأقبلت الأعاجم تسير على تعبئة، فلما رأتهم بنو قيس بن ثعلبة انصرفوا، فلحقوا بالحي فاستخفوا فيه، فسمي حي بني قيس بن ثعلبة. قال: وهو على موضع خفي، فلم يشهدوا ذلك اليوم »[118].

فالنص صريح في أنهم عاصروا الحرب وكانوا على مقربة منها، وأنهم لم يشاركوا فيها. إلا أن رواية شارح النقائض وتاريخ الطبري عن أبي عبيدة تشير إلى خلاف ذلك من خلال متابعتها لما قيل من أشعار بعد المعركة. فقد جاء فيها قوله: «فلما مدح الأعشى والأصم بني شيبان خاصة غضبت اللهازم، فقال أبو كلبة، أحد بني قيس بن ثعلبة، يؤنبهما بذلك:

جُدِّعتما شاعري قيس أولي حسب ... حُزَّت أنوفهما حزًّا بمنشار
أعني الأصمَّ وأعشانا إذا اجتمعا ... فلا استعانا على سمع بإبصار
لولا فوارس لا ميلٌ ولا عُزُلٌ ... من اللهازم ما قاظوا بذي قار
نحن أتيناهم من عند أشملهم ... كما تلبَّس وُرَّادٌ بصُدَّار »[119].

وهو ما يفيد أن الشاعر أبا كلبة غضب لقومه بني قيس بن ثعلبة، فأشاد بمشاركتهم في القتال.

غير أن صاحب الأغاني أثبت في شأن أبي كلبة بالذات ما يجعل روايته منسجمة تماما؛ فهو عنده أبو كلبة التيمي، ونسب إليه الأبيات السابقة مع زيادة فيها وتغيير واضح، وذكر أن الأعشى أجابه بقوله:

---

(118) الأغاني 68/24.

(119) النقائض 645/2، و(تاريخ الطبري) 211/2-212. والميل: جمع أميل، وهو الذي يميل على السرج، ولا يحسن ركوب الفرس، وقيل الذي لا سلاح معه. اللسان: (ميل). واسم الأصم بُكير، وهو أحد بني الحارث بن عباد كما في تاريخ الطبري . وانظر (من اسمه عمرو من الشعراء) ص 46، و(معجم ألقاب الشعراء) ص 22.

أبلغ أبا كلبة التيمي مألكة فأنت من معشر والله أشرار
شيبان تدفع عنك الحرب آونة وأنت تنبح نبح الكلب في الغَار[120]

فهو إذاً من أبناء تيم الله بن ثعلبة، وهم الفرع الثاني من أبناء ثعلبة بن عكابة، وهم الذين نازعوا إخوانهم بني قيس بن ثعلبة في لقب اللهازم كما أسلفنا، وربما كانوا أشهر به من غيرهم[121]، وقد شاركوا في الحرب إلى جانب من شارك فيها من قبائل بكر بن وائل، كما تدل على ذلك هذه المحاوبة الشعرية.

وكيفما كان الأمر، وسواء شارك بنو قيس بن ثعلبة في الحرب أم لم يشاركوا، فإن عدم مشاركتهم لا يعني عدم علمهم بأخبارها، بل ربما كانوا أحسن حالا من بعض الجنود المقاتلين في الاطلاع على أخبار المعركة وتحملها؛ لأنهم كانوا في موقع المتتبع المباشر لكل ما يجري، سواء قبل الحرب أو أثناءها أو بعدها، ولم يصبهم ما أصاب المقاتلين من الاضطراب والقتل؛ وبهذا تكون هذه القبيلة بشيوخها وحملة الأخبار فيها، ومنهم فراس بن خندق، من المصادر الشفوية المهمة لقصة يوم ذي قار.

ولا يشاركهم في موقعهم من الحرب، وقربهم منها، سوى الأُسراء الذين ورد ذكرهم في قول سليط: « قال سليط: فحدثنا أسراؤنا الذين كانوا فيهم يومئذ.. »[122]، فمن هو سليطٌ هذا ؟ ومن هم الأسراء الذين روى عنهم ما روى؟

أفاد أبو عبيدة في ما ألحقه بروايته من أخبار متصلة بها نقلا عن سليط هذا، وعن بعض ولد جرير، أن هؤلاء الأسرى من بني يربوع، من تميم، وهم قوم جرير؛ فقال:«أخبرني سليط قال: لما كان يوم ذي قار، وكان في بَكر أسراء من تميم، أكثرها من بني يربوع.. »[123]. وقد ورد اسم سليط كاملا

---

(120) الأغاني 74/24. والمألكة: الرسالة. اللسان (ألك).
(121) انظر ما سبق في ص 39 حاشية رقم 103.
(122) النقائض 644/2 ، و(تاريخ الطبري) 210/2.
(123) النقائض 2/ 647.

تقريبا في طبعة الصاوي لنقائض جرير والفرزدق، فقد جاء فيها النص المذكور أعلاه على هذا النحو: « قال سليط بن سعد بن معدان...بن ثعلبة: فحدثنا أسراؤنا.. »[124].

ثم وقفنا بعد عناء طويل على اسمه مقترنا بنسبه في بني يربوع، في نص ثمين لأبي عبيدة نفسه، ومن كتابه الأيام بالذات، يلقي أضواء عديدة على ما نحن فيه. وهو قول السيوطي: «وقال أبو عبيدة في كتاب أيام العرب: وجدت في كتاب لبعض ولد أبي عمرو بن العلاء، أخذ **عن سليط بن سعد اليربوعي**، أن الحوفزان أغار على بني يربوع فنذروا به، فذكر قصة»[125].

فسليط إذا من رواة بني يربوع، الذين روى عنهم فراس بن خندق وأبو عبيدة قصة يوم ذي قار وغيرها، وقد رواها سليط من جهته عن رجال من قومه الذين كانوا أسرى عند قبائل بكر بن وائل. فهل شارك هؤلاء الأسرى في الحرب أم كان موقفهم منها كموقف بني قيس بن ثعلبة، شهودا حضورا غير مشاركين؟.

تختلف رواية أبي عبيدة في هذا الشأن أيضا. فقد روى عن سليط وغيره أن فئة مهمة من بني يربوع جاءت إلى مكان قريب من المعركة، بقصد الإغارة على بكر إذا انهزمت أمام الفرس، فلما عرف البكريون قصدهم بدؤوا بهم، فقتلوا منهم وأسروا. فلما قامت الحرب طلبوا المشاركة فيها إلى جانبهم، فأذنوا لهم بعد أن استوثقوهم على عدم الفرار بعدها كما تقول رواية، وفي رواية أخرى أنهم لم يشاركوا في القتال.

ولا يتقدم على هؤلاء وأولائك، في الصلة بالحرب وتوفر أخبارها بينهم، سوى أبناء القبائل التي شاركت في الحرب، وفي مقدمتهم بنو عجل وبنو شيبان، الذين يرجع إليهم الفضل في الإعداد لذلك اليوم وتحقيق النصر فيه، فكان رواتهم أملك من غيرهم للنصوص النثرية والشعرية التي أنتجها فيها

---

(124) مصادر الشعر الجاهلي ص 269، ويبدو أن المؤلف نقل النص من طبعة الصاوي لنقائض جرير والفرزدق ص 644، ومن المؤسف أنني لم أقف بعد على هذه الطبعة.

(125) المزهر 168/1، وسنعود إلى هذا النص في سياق آخر.

زعماؤهم، وأقدر على الإحاطة بتفاصيل الحرب وجزئياتها، وكانوا بسبب ذلك كله أحرص على تخليد تراث قومهم، وتدوين مآثر آبائهم، وأكثر ترددا لها، كما سيأتي بيان بعض من ذلك.

ويبدو أن الرواة من جميع هذه القبائل هم المقصودون بقول أبي عبيدة في سنده: « .. وعدة من علماء العرب قد سماهم فراس.. »[126]، وأن منهم جد فراس علي بن شفيع، وأن منهم أيضا سليط بن سعد بن معدان اليربوعي، والأسرى المشار إليهم في قوله السابق، وفي قوله: « قال سليط: فخُبِّرت أنه..»[127]، وقد روى عنه أبو عبيدة مباشرة كما رأينا[128].

فقد روى فراس عن رجال قبيلته وقبيلة بني يربوع المعاصرين للحدث يوم وقوعه، ولا شك أن منهم من روى عن أفراد الجيش المشارك نفسه، وعن طريقه وطريقهم استفاضت روايته الشفوية، فأثبتها الأصمعي وشهد بصحتها كما جاء في السند، وهو بصري كأبي عبيدة، وراوي النقائض مثله كما أسلفنا[129].

ومما يشهد لذلك كله أن أبا عثمان المازني الذي وصلت إلينا هذه الرواية عن طريقه في شرح النقائض[130]، ينتمي إلى بني شيبان الذين شاركوا في الحرب إلى جانب بني عجل، ومن معهم من أبناء عمومتهم من قبائل بكر ابن وائل. فهو « بكر بن محمد، من بني مازن بن شيبان، بن ذهل، بن ثعلبة، ابن عكابة، بن صعب، بن علي، بن بكر بن وائل»[131]، وكان قومه بنو شيبان ميسرة الجيش أثناء القتال[132].

---

(126) انظر السند كاملا في ص 31.

(127) النقائض 644/2، وفي (تاريخ الطبري) 210/2 « قال فراس: فخُبّرت أنه..».

(128) في النص المذكور أعلاه في قوله: « أخبرني سليط » . ونشير هنا إلى أن الروايات الشفوية تتداخل فيما بينها لأسباب عديدة، وقد تتداخل مع الروايات المكتوبة أيضا. ويصعب ضبط مسار الروايات بالدقة المطلوبة، ولا تسمح المصادر بتتبع تحولات أي رواية وتنقلاتها كيفما كان موضوعها.

(129) انظر ما سبق في ص 31 وص 38 حاشية رقم 101.

(130) انظر ما سبق في ص 38-39.

(131) الفهرست ص 90، وانظر (معجم الأدباء) 108/7، و(نور القبس) ص 220.

(132) الأغاني 71/24.

وربما كان ذلك من الأسباب القوية التي جعلته يحرص على تدوين أخبار هذا اليوم – لأنه لم يكن أخباريا متخصصا كما أسلفنا[133] – إلى جانب أنه بصري روى الكثير من علم أبي عبيدة والأصمعي[134]، وكانت الرواية الشفوية الأصل المفضل عند علماء البصرة كما هو معروف[135]. فهو يروي ويدون ما هو محفوظ من مآثر آبائه وتاريخ قبيلته[136].

ومما يؤيد ذلك أيضا ما يظهر في روايته من ميل واضح إلى الإشادة بقومه بني شيبان، وإعراض عما فيه إساءة إليهم، وطعن في شجاعتهم. فهو ينص على أن الأعشى « يمدح بني شيبان خاصة »[137]، وأن الأصمَّ شاركه في « مدح بني شيبان خاصة »[138]؛ وهما عبارتان لم تردا في رواية صاحب الأغاني عن غير المازني[139]. وينص أيضا على أن امرأة شيبانية حرضت قومها بالشعر على القتال، « فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من قِبل مناكبهم، لأن تخف أيديهم بالسيوف فجالدوهم»[140]. ولم يرد هذا أيضا في رواية صاحب الأغاني، وإنما ورد فيها ما يمكن اعتباره من مثالب بني شيبان التي سكت عنها قوم المازني؛ كخبر القائد الفارسي الذي دعا الناس للمبارزة، « فنادى في بني شيبان، فلم يبرز له أحد »[141]، حتى إذا دنا من بني يشكر برز له أحدهم فقتله.

وكل هذه الاختلافات والإشارات تدل على أن رواية أبي عبيدة شفوية في أغلب أصولها، وأن أكثر رواتها وحفاظ نصوصها من بني شيبان، الذين

---

(133) انظر ما سبق في ص 38–39.

(134) انظر (نزهة الألباء) ص 182، و (معجم الأدباء) 108/7 .

(135) انظر ما سبق في ص 24–25.

(136) انظر نموذجا من حرصه على لغة قبيلته وافتخاره بها في (معجم الأدباء) 112/7.

(137) النقائض 644/2 ، و(تاريخ الطبري) 211/2.

(138) النقائض 2/ 645 ، و(تاريخ الطبري) 211/2.

(139) الأغاني 24/ 77

(140) النقائض 643/2 ، و(تاريخ الطبري) 2/ 210.

(141) الأغاني 24/ 71 . وفي رواية أخرى أنهم فروا أمامه، المصدر نفسه، حاشية رقم 23.

أثروا فيها تأثيرا قويا، ثم من بني قيس بن ثعلبة وبني يربـــوع، الـــذين أخـــذ عنـــهم فراس وسليط أكثر أخبارها، وهما من أبرز شيوخ أبي عبيـــدة، الـــذين رووا عمـــن أدركوا الجاهلية، وعاصروا وقعة يوم ذي قار القريبة جدا من الإسلام[142].

وعندما ننظر في متن هذه الرواية ولغتها نجد فيها أكثر من دليـــل علـــى أنهـــا شفوية في أكثر تحولاتها إلى أن أملاها أبو عبيدة علـــى تلاميـــذه. فهـــي مختـــصرة موجزة بالقياس إلى رواية هشام الكلبي عن شيوخه، وعباراتهـــا تقريريـــة مباشـــرة، دالة بذلك على الارتجال والعفوية، ولا أثر فيها للتنميق والتزويـــق، وقـــد « كـــان أبو عبيدة غليظ اللغة »[143]. وهي خالية من الأمثال، ومـــن النـــصوص الـــشعرية المطولة، ومن أي نصوص نثرية من خطب ورســـائل تستعـــصي بطبيعتـــها علـــى الذاكرة.

وفي كل أولائك تختلف عن رواية هشام الكلـــبي كمـــا وردت في كتـــاب الأغاني، سواء منها ما تعلق بقصة يوم ذي قار، وما تعلق بحياة عـــدي بـــن زيـــد؛ إذ يوجد فيها أكثر من دليل على أن معظـــم أخبارهـــا ونـــصوصها ينحـــدر مـــن أصول مكتوبة كما سنرى. والفارق الأكبر بينـــهما أن هـــذه تنقـــل أحيانـــا مـــن آثار مكتوبة، في حين تكتفي تلك غالبا بالسماع من الرجال، وهو مـــا نبـــه عليـــه الأصفهاني بمثل قوله: «هكذا ذكـــر العلمـــاء مـــن أهـــل الحـــيرة. وقالـــت رواة العرب»[144]، وقوله: « وقال حماد الراويـــة والكوفيـــون»[145]، وقولـــه ضـــمن سند: «عـــن هـــشام الكلـــبي، عـــن أبيـــه، وإســـحاق بـــن الجـــصاص، عـــن الكوفيين»[146].

هذا عن قصة يوم ذي قار وسندها في رواية أبي عبيـــدة كمـــا دونهـــا راوي نقائض جرير والفرزدق والطبري في تاريخه. أمـــا صـــاحب الأغـــاني (- 356 هـــ)

---

(142) جاء في (الأغاني) 76/24 « كانت وقعة ذي قار بعد وقعة بدر بأشهر، ورســـول الله صـــلى الله عليه وسلم بالمدينة .. » ، وانظر ص 66 منه .

(143) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص 177.

(144) الأغاني 2/ 133.

(145) المصدر نفسه 2/ 127.

(146) نفسه 2/ 140 ، وانظر ما سبق في ص 34-35.

فقد أوردها بأسانيد أخرى متداخلة، يعود أكثرهـــا إلى هـــشام الكلـــبي، ومنـــها ما هو عن أبي عبيدة نفـــسه[147]. ولكنـــه أورد قبلـــها الأســـباب المؤديـــة إلى الحرب، في ترجمته الموسعة لعدي بن زيـــد، بأســـانيد متماثلـــة، يعـــود أكثرهـــا أيضا إلى هشام الكلبي عن حماد الراوية وغيره؛ ولا تختلف اختلافـــا كـــبيرا عـــن أسانيده لرواية أحداث يوم ذي قار، وقد اتفق معـــه الطـــبري في أســـانيد جـــزء منها ومتنه، وهو الذي رُويا فيه معا قـــصة مقتـــل عـــدي بـــن زيـــد وصـــاحبه النعمان بن المنذر[148].

المبحث الثالث:

أسانيد رواية هشام بن الكلبي وأصولها المكتوبة:

جاء سنده الذي روى به القسم الأول من حياة عدي بن زيـــد علـــى هـــذا النحو: « قال ابن الأعرابي في ما أخبرني به علي بـــن ســـليمان الأخفـــش، عـــن السكري، عن محمد بن حبيب عنه، وعن هشام ابن الكلـــبي، عـــن أبيـــه، قـــال: سبب نزول آل عدي... »[149].

فهذه رواية ترتقي إلى عـــالمين مـــن علمـــاء الكوفـــة في الأدب والأخبـــار والأنساب، هما: هشام بن محمد بن السائب الكلبي (- 204 هـ)، وهـــو مـــن أهـــم رواة التاريخ الجاهلي، وأكثرهم اعتمـــادا علـــى الوثـــائق المكتوبـــة كمـــا ســـبق بيانه[150]، ومحمد بن زياد المعروف بـــابن الأعـــرابي (- 231هـ)[151]، وقـــد قيـــل فيه: إنه « كان أحفظ الناس للغات والأيام والأنساب»[152]، وقيـــل فيـــه أيـــضا: «لم يكن للكـــوفيين أشـــبه بروايـــة البـــصريين منـــه روايـــة لأشـــعار القبائـــل ناسبا»[153].

---

(147) انظر ما سبق في ص 35.

(148) انظر ما سبق في ص 34.

(149) الأغاني 2/ 97.

(150) انظر ما سبق عنه وعن والده، وعن وقوفه على آثار المناذرة في ص 19-20 ، 24-25.

(151) انظر ترجمته وأخباره في (الفهرست) ص 108-109، و(نزهة الألباء) ص 150-153، و(معجم الأدباء) 18/ 189-196 .

(152) معجم الأدباء 190/18.

(153) المصدر السابق 190/18، وانظر (نزهة الألباء) ص 150.

وقال تلميذه ثعلب: « لزمته بضع عشرة سنة، ما رأيت بيده كتابا قط»[154]. وهو يعني بذلك أنه كان يجيب على الأسئلة التي تلقى عليه من حفظه، ويملي منه، وإلا فقد استفاضت عنه حكاية طريفة، تفيد أنه كان يطيل النظر في الكتب في بيته، وأنه يفضل الجلوس إليها على مجالسة الأمراء، وأنه أنشد من استفسره عن ذلك الأبيات التالية:

لنا جلساء ما نملُّ حديثهم ألبَّاء، مأمونون، غَيْباً ومشهداً
يفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى وعقلاً وتأديبا ورأيا مسدَّدا
فلا فتنةً نخشى ولا سوءَ عشرة ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فإن قلتَ أمواتٌ فما أنت كاذب وإن قلتَ أحياءٌ فلستَ مفنَّدا[155]

وذكر ابن النديم عن ثعلب أنه أملى على الناس ما يحمل على أجمال[156].

ومن تصانيفه الدالة على عنايته بالتاريخ الجاهلي: كتاب تاريخ القبائل، كتاب تفسير الأمثال، كتاب نوادر بني فقعس[157]. وفي كل ذلك يلتقي مع هشام الكلبي في اهتمامه المعروف بالأنساب والأيام وما إليها من أخبار الجاهلية.

وقد اجتمعت روايتهما لقصة حياة عدي بن زيد وما يتعلق بها من أخبار يوم ذي قار، عند محمد بن حبيب (– 245هـ)[158] كما جاء في السند أعلاه: « عنه وعن هشام ». وذلك ما يشير إليه ياقوت نقلا عن ابن النديم، قال: « نقلت من خط أبي سعيد السكري، قال: هو محمد بن حبيب ابن أمية بن عمرو، وكان يروي عن **هشام بن الكلبي، وابن الأعرابي،**

---

(154) المصدر نفسه 18/ 191، وانظر (الفهرست) ص 108.
(155) نفسه 195/18. وهي أبيات تذكر بوصف الجاحظ للكتب في مقدمة (كتاب الحيوان).
(156) الفهرست ص 109، و(نزهة الألباء) ص 151.
(157) انظر (معجم الأدباء) 18/ 196.
(158) انظر ترجمته وأخباره في (الفهرست) ص 161، و(طبقات النحويين) للزبيدي ص 139، و(مراتب النحويين) ص 152، و(معجم الأدباء) 18/ 112.

وقطرب، وأبي عبيدة، وأبي اليقظان »[159]. ونقل عن مصدر آخر قوله: إنه كان « من علماء بغداد باللغة والشعر، والأخبار والأنساب، الثقات... وهو ممن يروي كتب **ابن الأعرابي، وابن الكلبي**، وقطرب، وكتبه صحيحة، وله مصنفات في الأخبار.. »[160].

وذلك ما تشهد به عناوين كتبه الكثيرة التي أوردها ابن النديم وياقوت، وتدور كلها حول الأخبار، والشعر، والأنساب، والأيام، والتاريخ الجاهلي[161]. ومنها كتاب القبائل الكبير والأيام، الذي جمعه للفتح بن خاقان. وقد وقف ابن النديم على نسخة منه فقال: إنها في « نحو من أربعين جزءا، في كل جزء مائتا ورقة وأكثر، ولهذه النسخة فهرست لما يحتوي عليه من القبائل والأيام في نحو خمس عشرة ورقة»[162].

وعن محمد بن حبيب أخذ أبو سعيد السكري (- 275 هـ)[163]، وكان «حسن المعرفة باللغة والأنساب والأيام»[164]، راوية ثقة مكثرا[165]، «وكان راوية البصريين»[166]. ونص غير واحد ممن ترجموا له أن أبرز شيوخه هو محمد بن حبيب، وأنه أكثر الأخذ عنه[167]. وقال ياقوت: إنه «انتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه»[168]. ومنها مما يتصل بالأيام وتاريخ الجاهلية: كتاب النقائض،كتاب المناهل والقرى، ومنها دواوين

---

(159) معجم الأدباء 113/18 ، والنص مضطرب (في الفهرست) ص 161، ولعل نسخة ياقوت من كتاب ابن النديم أصح وأوفى لأنها بخط ابن النديم نفسه (معجم الأدباء) 13/ 247.

(160) المصدر السابق 112/18، وانظر (الفهرست) ص 161، (وبغية الوعاة) 73/1.

(161) انظر (الفهرست) ص 161، و(معجم الأدباء) 18/ 115-116.

(162) الفهرست ص 161-162، وعنه في (معجم الأدباء) 18/ 116.

(163) انظر ترجمته وأخباره في(الفهرست) ص 123، و(نزهة الألباء) ص 211، و(معجم الأدباء) 94/8-99 ، و(بغية الوعاة) 502/1.

(164) الفهرست ص 123.

(165) معجم الأدباء 94/8.

(166) نزهة الألباء ص 211.

(167) معجم الأدباء 113/8، و(بغية الوعاة) 73/1.

(168) معجم الأدباء 94/8.

الشعراء الجاهليين والإسلاميين التي جمعها وهي كثيرة، وكذا دواوين القبائل التي نسب إليه عمل كثير منها[169]. وكل ذلك يتناسب مع سلسلة سند الأصفهاني المذكورة آنفا.

أما الراوي المباشر الذي أخذ عنه الأصفهاني هذا القسم من حياة عدي ابن زيد، كما جاء في سنده، فهو أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش (– 315هـ)[170]، وقد وصف بأنه «كان حافظا للأخبار »[171]، وأنه «من أفاضل علماء العربية»[172]، وأنه « كان ثقة »[173].

ولم أجد في ما وقفت عليه من أخباره ما يشير إلى أنه أخذ عن أبي سعيد السكري، كما جاء في سند الأصفهاني، إلا أن ذلك لا يقدح في ما رواه عنه أبو الفرج، وهو غير قليل[174]. فالفاصل الزمني بين السكري والأخفش قصير جدا، وكذا بين الأخفش والأصفهاني[175]، فقد كان أبو الفرج في حوالي الثلاثين من عمره عندما توفي الأخفش، وكان هذا في حوالي الأربعين من عمره عندما توفي السكري، وكلهم دخلوا بغداد، وقضوا فيها سنوات نضجهم وعطائهم، وفيها تم الاتصال بينهم، فالمعاصرة بينهم، وكذا الاتصال ورواية المتقدم عن المتأخر، ثابتة على الترتيب الذي ذكره الأصفهاني.

وفي عصرهم شاع العلم والمعرفة، وكثر التأليف والنسخ، على أساس إرث زاخر من التراث العلمي المحفوظ والمكتوب، وكانت بغداد بمثابة مركز الدائرة في ذلك كله، وقد اجتمع فيها علم البصرة والكوفة عن طريق وفادة

---

(169) انظر (الفهرست) ص 123، و(معجم الأدباء) 8/97-99.

(170) انظر ترجمته وأخباره في (الفهرست) ص 129، و(نزهة الألباء) ص 248، و(معجم الأدباء) 13/246-257، و(وفيات الأعيان) 3/301-303.

(171) الفهرست ص 129.

(172) نزهة الألباء ص 248 .

(173) وفيات الأعيان 3/301.

(174) روى عنه حوالي 232 رواية. انظر فهارس كتاب الأغاني 13/95.

(175) ولد أبو الفرج سنة 284 هـ ، وتوفي سنة (356 هـ) أو(362 هـ) . وتوفي الأخفش سنة (315 هـ) عن ثمانين سنة ، وولد السكري سنة (212 هـ) وتوفي سنة (275 هـ).

علمائهما إلى الخلفاء والأمراء والوزراء فيها، ومنهم أبو عبيدة وابن الأعرابي وأبو سعيد السكري وغيرهم، وقد انتقل إليها بالتدريج منذ منتصف القرن الثاني الهجري[176]. فنرى رواة القرن الثالث يجمعون علم المدينتين، فلم يقتصر ابن الأعرابي مثلا، وهو كوفي، على علم الكوفيين وحدهم، ولكنه ضم إليه «علم البصريين، وعلم أبي زيد خاصة، من غير أن يسمعه منه»[177]، وكذلك فعل ابن حبيب والسكري وغيرهما[178].

وكما شاع تراث البصرة والكوفة في سائر المدن والأمصار الإسلامية، شاعت رواية الكتب والنقل منها، مع السماع من أصحابها أو بدونه. فقد كان ابن أخي الأصمعي يحكي عن عمه « ما يجده في كتبه من غير أن يكون سمعه من لفظه[179]». وورد عن أبي عبيد القاسم بن سلام أن أكثر ما يحكيه عن علماء البصرة «غير سماع، إنما هو من الكتب»[180]. وهو ما كان يفعله الأصفهاني أيضا، فقد قال فيه ابن النديم: « له رواية يسيرة، وأكثر تعويله كان في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط، أو غيرها من الأصول الجياد»[181]. وساق الخطيب البغدادي هذا المعنى في عنف وتجريح مبالغ فيه، فقال: «كان أبو الفرج الأصفهاني من أكذب الناس، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئا كثيرا من الصحف، ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها »[182].

---

(176) انظر (مراتب النحويين) ص 6، 144، و (نور القبس المختصر من كتاب المقتبس) ص 308 فما بعدها.

(177) مراتب النحويين ص 147، وهو يقصد أبا زيد الأنصاري البصري، انظر (نزهة الألباء) ص 126.

(178) انظر النص أعلاه في ص 48-49 عن ابن النديم، فهو ينص على أن محمد بن حبيب روى علم البصريين والكوفيين معا، وانظر أيضا (مراتب النحويين) ص 143، 146، 148.

(179) مراتب النحويين ص 133، وقد يكون الأصمعي أذن له في ذلك، وهو ما يعرف بالإجازة.

(180) المصدر السابق ص 148.

(181) الفهرست ص 172، والخط المنسوب هو الذي تناسبت حروفه على هندسة معلومة، وعن الكُتّاب به ألف السيوطي كتابه (طبقات أهل الخط المنسوب) مما يوحي بوفرة عددهم. انظر (صبح الأعشى) 45/3.

(182) تاريخ بغداد 398/11.

غير أن أبا الفرج لم يكن يخفي هذا الصنيع أو يتستر عليه، فكثيرا ما يرفق مروياته بقوله: نسخت من كتاب فلان. وهو ما يبدو واضحا في سنده الذي ندرسه هنا، فهو مبدوء بقوله: « قال ابن الأعرابي في ما أخبرني به علي ابن سليمان الأخفش.. »[183]؛ فأسند القول إلى الراوي الأول الذي يعتبره حجة في الأخذ عن المتقدمين، وأصلا للمتأخرين، برغم البعد الزمني الذي يفصله عنه. فنصُّ العبارة مع التقديم والتأخير في السند، يشعر بالنقل من كتاب.

وهذا النمط كثير في أسانيده، وهو بعدُ في عصره شائع ومما شجع عليه قلة مخاطر التصحيف بسبب تحسن الخط العربي وشيوع النقط فيه. فقد رأينا قول ابن النديم في ترجمته لمحمد بن حبيب: «نقلت من خط أبي سعيد السكري..»[184]، وقول غيره فيه: «وهو ممن يروي كتب ابن الأعرابي وابن الكلبي وقطرب»[185]. فقد صارت كتب ابن الكلبي وابن الأعرابي وغيرهما من المتقدمين إرثا متوارثا يتناقلها العلماء، بالرواية الشفوية وبدونها، منذ أن فرغ أصحابها من تدوينها، ولذلك كله أصلان معروفان عند علماء الحديث واللغة معا، وهما المسميان عندهم بالإجازة والوجادة[186]. وقد تناقل العلماء مرويات ابن الكلبي نفسه بالإجازة وحدها[187].

وكل ذلك يؤيد وقوف الأصفهاني على مصنفات الأولين ومدوناتهم، فضلا عن الرواية عن شيوخه المتأخرين، كما يشير إلى ذلك ابن النديم في قوله فيه: إنه يعتمد على الكتب المنسوبة الخطوط، وعلى الأصول الجياد[188].

---

(183) انظر السند كاملا في ص 47.

(184) انظر النص كاملا أعلاه في ص 48.

(185) انظر النص كاملا أعلاه في ص 49.

(186) انظر (المزهر) للسيوطي 44/1، 162، 167، وبحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 13 فما بعدها.

(187) انظر (المزهر) 163/1-164.

(188) ويجدر بالذكر هنا أن سيد قطب يعتبر الأصفهاني من رواد المنهج التاريخي في النقد الأدبي، وذلك لأنه « يذكر النص، وينسبه لصاحبه بسلسلة من الرواية، ويذكر أخباره، ويقبل الرواية أو يرفضها،

وهو ما يعني انحدار معظم أخبار عدي بن زيد وقصة يوم ذي قار إليه من أصول مكتوبة، عن طريق هؤلاء الرواة الكوفيين، ومن كتب ابن الكلبي بالذات، وهو الذي كان يستخرج أخبار المناذرة من كتبهم بالحيرة[189].

وكلما تقدمنا في دراسة أسانيد روايته هذه ومتنها نجد كثيرا من الدلائل والإشارات التي تؤيد هذا التوجيه وتسانده.

فقد جاء سنده الذي روى عن طريقه القسم الثاني من حياة عدي بن زيد — وهو الذي شاركه فيه الطبري على اختلاف يسير بينهما[190] - جاء على هذا النحو: «قال ابن حبيب، وذكر ابن الكلبي عن إسحاق بن الجصاص وحماد الراوية وأبي محمد بن السائب، قال: كان لعدي بن زيد أخوان..»[191]، في حين أثبته الطبري على النحو التالي: «ذُكر لي عن هشام ابن محمد قال: سمعت إسحاق بن الجصاص — وأخذته من كتاب حماد، وقد ذكر أبي بعضه — قال: ولد زيد بن حماد.. ثلاثة...»[192].

فقد تجاوزا معاً الرواة المباشرين المتأخرين، الذين يمكن أن يرويا عنهم رواية شفوية، لو كان موضوع الرواية خبرا قصيرا أو نصا صغيرا، وفضَّلا الأخذ ممن هم أقرب إلى الأصل، وأحفظ لما سمعوه ودونوه، ما دامت المادة المروية مكتملة عندهم، وصارت مدوناتهم مستندها وموردها عند المتأخرين، وعليها تدور أشكال من الرواية الشفوية والمكتوبة بالإجازة أو بدونها.

=ويعلل الرفض. ويستشهد ببعض الحوادث والرواة على كذب رواية أو صدقها، ويذكر طبقة الشاعر في بعض الأحيان، وطريقته ومن يشترك معه فيها.. الخ، وهذا من صميم المنهج وأصوله الصحيحة... وبذلك يعد صاحب الأغاني خير من كتب في هذا الباب». النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص 162.

(189) انظر ما سبق في ص 24.

(190) انظر ما سبق في ص 35، 47.

(191) الأغاني 105/2.

(192) تاريخ الطبري 193/2.

فقد بدأ أبو الفرج الأصفهاني (284-356 هـ أو 362 هـ) بابن حبيب (- 245 هـ) الذي لم يدركه، ويفصله عنه أزيد من نصف قرن، ولكنه كان مشهورا برواية كتب ابن الأعرابي وابن الكلبي وأضرابهما من الرواة الكوفيين كما أسلفنا[193] - وهو ما فعله أيضا في السند السابق حين بدأ بابن الأعرابي[194] - ثم ثنى بابن الكلبي، الذي أخذ هذا القسم من قصة عدي بن زيد عن ثلاث من الرواة المتقدمين، وهم إسحاق بن الجصاص، وحماد الراوية، ووالده محمد بن السائب الكلبي.

وكذلك فعل الطبري (- 310 هـ)، فقد حذف أيضا الرواة المباشرين، إلا أنه أشار إليهم بقوله: « ذُكر لي..»، وهي صيغته المفضلة عندما ينقل عن أصول مكتوبة[195]. فمصدر هذا الجزء من قصة حياة عدي بن زيد كمصدر الجزء السابق، هو كتب هشام بن الكلبي عن أبيه وسائر شيوخه، وهو ما يفسر تلاقي روايتي الطبري وأبي الفرج له، وتشابههما إلى حد بعيد[196].

إلا أن الخلاف الكبير بين سند هذا الجزء وسند الجزء السابق، هو إضافة رجلين آخرين إلى محمد بن السائب والد هشام، باعتبارهما مصدر روايته إلى جانب روايته عن أبيه، وهما إسحاق بن الجصاص وحماد الراوية. فما صلة هذين الرجلين بالتراث الجاهلي، وبقصة يوم ذي قار وما إليها من أخبار عدي بن زيد ؟ .

أما إسحاق بن عمار المعروف بابن الجصاص، فهو من الرواة المتقدمين[197]، ورد ذكره في غير ما رواية عنه مقترنا بأبي عمرو بن العلاء

---

(193) انظر ما سبق في ص 48-49.

(194) انظر ما سبق في ص 47.

(195) انظر (تاريخ التراث العربي) لفؤاد سزكين 437/1.

(196) انظر ما سبق في ص 35-36.

(197) انظر ترجمته في(معجم الأدباء) 74/6-76، وقد جاء فيها أنه مات في آخر أيام المنصور.

وحماد الراوية وجناد بن واصل وأضرابهما[198]. وجاء في ترجمته أنه « من موالي اليمن، وكان صاحب عيسى بن موسى في أول الدولة، ولم يزل معه، فكان الناس يقرؤون عليه الشعر في دار عيسى»[199]. وقال فيه الكسائي: «إسحاق بن عمار الجصاص، أحد من أخذنا عنه الشعر، وكان عالما به»[200]. وهو من الرواة الكوفيين[201].

ويفيد ما وقفنا عليه من مروياته أنه كان معتنيا بالأيام وتاريخ العرب القديم وعلاقتهم بالفرس، فضلا عن رواية الشعر كمعظم المعاصرين له من رواة الكوفة. فعن طريقه روى الأصفهاني خبر يوم الكلاب الثاني[202]، وكذا خبر صاحبي مدينة الحضْر وقصر الخورنق الذي ألحقه بهذا الجزء نفسه الذي ندرسه من أخبار عدي بن زيد، ضمن ما ألحقه به من الأخبار المتصلة به وبالحيرة والمناذرة المتأخرين[203]. ويبدو أن الرواية عنه قليلة، وأن مروياته غطت عليها مرويات معاصريه، لأنها إرث شائع شاركه في تدوينه غير واحد من علماء عصره، فكانت لهم الشهرة به أكثر منه.

وهو يشترك مع حماد الراوية في أكثر من وجه، فهو مولى مثلُه، وكوفي مثلُه، ومهتم مثلُه بتراث العرب القديم؛ ثم هو معاصر له[204]، وكان يروي عنه[205]. وهما معا من شيوخ ابن الكلبي المتقدمين، ولذلك روى عنهما جزءا من أخبار عدي بن زيد والمناذرة إلى جانب الرواية عن والده الذي كان عمدته في هذه القصة وغيرها.

---

(198) انظر (الفهرست) ص 141، و(الأغاني) 140/2، 249/11، 286/22.

(199) معجم الأدباء 74/6، وعيسى بن موسى بن محمد العباسي (- 167هـ) ابن أخي أبي العباس السفاح، الأعلام 109/5.

(200) المصدر السابق 75/6.

(201) نفسه 75/6.

(202) الأغاني 16/ 329، وللفرس أثر في وقوعه.

(203) انظر (الأغاني) وما سبق في ص 36.

(204) توفي حماد سنة (156 هـ)، وتوفي ابن الجصاص في آخر أيام المنصور (- 158 هـ)، أي نحو سنة (156 هـ) نفسها.

(205) انظر (الأغاني) 149/11.

وبرغم الاختلاف اليسير بين سند الأصفهاني وسند الطبري فهما سند واحد، بل إن أحدهما يكمل الآخر. فقد ورد اسم حماد عند الطبري دون ذكر لقبه، ولكنه ذكر معه كتابه، ونص ابن الكلبي على أنه نقل منه: «وأخذته من كتاب حماد »[206]، في حين ورد عند الأصفهاني مجردا من ذلك كله، ولكنه لقبه بلقبه الراوية. فلو لم يذكر الكتاب عند الطبري، وحماد الراوية عند الأصفهاني، لكان في الأمر مجال للأخذ والرد[207].

وبذلك دلنا هذا الاختلاف على أن لحماد الراوية كتابا في أخبار عدي ابن زيد ويوم ذي قار، وربما في غيرهما من شعراء الجاهلية وأيامها كما سنبين، وأن هشام بن محمد الكلبي نقل عنه كما صرح بذلك، وأن هذا الكتاب وغيره من كتب الرواة المتقدمين، ومنهم ابن الكلبي، ابتلعتها كتب ابن الأعرابي ومحمد بن حبيب، ثم ذابت في كتب المتأخرين. وكل ذلك يؤيد أن الأصول الأولى التي رجع إليها هشام في هذه القصة كانت وثائق مكتوبة إلى جانب الرواية الشفوية. وسنعود إلى هذا بعد النظر في السند الأخير من أسانيد أبي الفرج، وهو سند روايته ليوم ذي قار.

قال: « أخبرنا بخبرها علي بن سليمان الأخفش، عن السكري، عن محمد بن حبيب، عن ابن الكلبي، عن خراش بن إسماعيل. وأضفت إلى ذلك رواية الأثرم عن أبي عبيدة، وعن هشام أيضا عن أبيه، قالوا.. »[208].

وهذا سند يتكون -كما نرى - من ثلاث طرق، اثنتان منها عن هشام ابن الكلبي، والأخرى عن أبي عبيدة. ولا تختلف الطريقة الأولى كثيرا عن الطريقة السابقة التي روى بها أبو الفرج الجزء الأول من قصة حياة عدي بن

---

(206) انظر السند أعلاه في ص 32. وهذا ما يسمى بالوجادة في اصطلاح علماء الحديث، ولكن العمل به يعود إلى العصر الجاهلي بدليل قول الشاعر:

وجدنا في كتاب بني تميم « أحق الخيل بالركض المعار ». المفضليات ص 344.

(207) ذهب أستاذنا المرحوم الدكتور محمد نجيب البهبيتي إلى أن حمادا المقصود في سند الطبري هو جد عدي بن زيد بن حماد. ويظهر أنه لم يقف على سند الأصفهاني. انظر: (المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين) ص 94-95.

(208) الأغاني 53/24.وانظر ما سبق في ص 36-37.

زيد وأسرته[209]، فالسلسلة متصلة منه إلى هشام بن الكلبي بأسماء الرواة أنفسهم؛ إلا أنه حذف منها ابن الأعرابي واكتفى بابن حبيب، وكلاهما روى كتب هشام كما تقدم، وارتقت السلسلة إلى خراش بن إسماعيل بدلا من أبي محمد بن السائب والد هشام، ولكنه عاد ليورد روايته عن طريق الأثرم، الذي جمع رواية هشام عن أبيه إلى رواية أبي عبيدة.

فنحن هنا أمام مصادر ثلاثة لقصة يوم ذي قار، تعتبر أصولا لها، هي: رواية هشام بن الكلبي عن خراش بن إسماعيل، وروايته عن والده، ورواية أبي عبيدة.

و لم يُضَف في هذا السند إلى الرجال الذين أثبتنا صلتهم القوية بأخبار عدي بن زيد ويوم ذي قار والمناذرة، عن طريق رواية كتب هشام عن والده وغيرها[210]، سوى رجلين هما: خراش بن إسماعيل والأثرم.

والأول راوية متقدم[211] لم ينقل عنه الكثير، ومع ذلك فقد ترك آثارا مكتوبة. فهو من طبقة محمد بن السائب وحماد الراوية وجناد بن واصل وابن الجصاص وأضرابهم. قال فيه ابن النديم: «خراش بن إسماعيل **الشيباني**، ويكنى بأبي رعشن، أخذ عنه محمد بن السائب الكلبي، وهو أحد النسابين. وله من الكتب: كتاب **أخبار ربيعة** وأنسابها»[212]، فنسبه كما نرى إلى بني شيبان، ولكنه نسبه في مكان آخر إلى بني عجل[213]، وهو الصحيح كما سنبين.

ولعل معظم مروياته مفرق في كتب هشام الذي روى عنه كثيرا من علمه وعلم والده، ويظهر أنه كان عمدتهما معا في نسب ربيعة بن نزار وما إليه، وأن كتابه في أخبار ربيعة ونسبها نقلاه عنه بكامله. قال هشام: «وأخذت نسب ربيعة عن أبي وعن خراش بن إسماعيل **العجلي** »[214]،

---

(209) انظر ما سبق في ص 47 فما بعدها.

(210) انظر ما سبق في ص 47 فما بعدها .

(211) انظر عنه (طبقات النسابين) لبكر أبو زيد ص 30.

(212) الفهرست ص 162. وكناه رضا تجدد في طبعته لكتاب (الفهرست) ص 121 بأبي وعرا بدلا من أبي رعشن ؟ ؟.

(213) المصدر نفسه ص 146.

(214) نفسه ص 146.

وقال: «حدثنا خراش قال: **سمعت أشياخا لبكر بن وائل** يقولون.. »[215]، فروى عنه خبرا طريفا في تفسير أسماء قبائل بكر بن وائل وأصولها اللغوية الأولى. ووردت رواية في الأغاني « عن العباس بن هشام عن أبيه قال: حدثني خراش بن إسماعيل، وكان عالما راوية لأبي..»[216].

ولم يفته أن يثبت نسب هذا العالم الراوية ضمن نسب ربيعة الذي رواه عنه، فهو خراش بن إسماعيل بن خراش بن جبير بن هلال بن مرَّة بن عبد الله بن معاوية بن عبد سعد بن جُشم بن قيس بن سعد بن **عجل** بن لجيم... **بن بكر بن وائل**... بن ربيعة بن نزار[217].

فهو إذا عالم راوية من بني عجل، أبناء عم بني قيس بن ثعلبة وبني شيبان وغيرهم من قبائل بكر بن وائل كما سبق القول[218]. روى علم عدد من العلماء منهم محمد بن السائب الكلبي، على نحو ما رُوِي عنه نسب قبائل ربيعة بن نزار. وهو ما يعني تاريخها وأخبارها وآثارها المدونة في كتابه الذي ذكره ابن النديم، ومنها أخبار عدي بن زيد وأسرته وقبائل بكر بن وائل التي ثأرت في يوم ذي قار لقتله ولقتل النعمان بن المنذر، وفي طليعتها **بنو عجل** قومُ خراش. فهم الذين قادوا المعركة، وتحقق النصر فيها بفضلهم وزعامة قائدهم حنظلة بن ثعلبة بن سيار بن حيي بن حاطبة بن الأسعد بن جذيمة بن سعد بن عجل[219]. فقد كانوا ميمنة الجيش في ذلك اليوم[220]، وأبلوا بلاء حسنا[221]، وتبعت فرقة مهمة منهم المنهزمين من الفرس بالقتل والأسر[222]، وإلى ذلك يشير أبو كلبة التيمي في شعره المشار إليه سابقا:

---

(215) جمهرة النسب لابن الكلبي ص 485.
(216) الأغاني 392/15، وانظر 158/2 منه.
(217) جمهرة النسب ص 551، وانظر: (من اسمه عمرو من الشعراء لابن الجراح) ص 54.
(218) انظر ما سبق في ص 39 فما بعدها.
(219) الأغاني 67/24.
(220) المصدر لسابق 235/24.
(221) النقائض 641/2.
(222) المصدر السابق 644/2، و(الأغاني) 75/24.

إن الفوارس من **عجلٍ** هم أنِفوا من أن يخلُّوا لكسري عرصة الدار[223]

فخراش يروي يوما من أيام قومه، وتاريخا من تاريخ آبائه وأجداده[224]. وهو من المصادر الأولى الذين نقل عنهم هشام ابن الكلبي قصة يوم ذي قار كما نقلها عن والده. ومن المرجح أنها من محتويات كتابه المذكور بما هو راوية محترف، وباعتبارها أثرا من آثار قبيلته التي حرصت على تخليدها بالكتابة والتقييد، لما فيها من المجد والسؤدد، على نحو ما قُيدت ودونت نصوص وأخبار كثيرة في ما عرف بكتب القبائل ودواوينها، ولأن فيها كثيرا من نصوص الخطب والأشعار خلافا لرواية أبي عبيدة[225].

✳ وكل ذلك يؤيد صحة رواية هشام عنه ويوثقها، وأنه أخذها من أصول مكتوبة.

أما الراوي الثاني الذي لم يرد في الأسانيد السابقة، وأضاف صاحب الأغاني عن طريقه رواية أبي عبيدة إلى رواية هشام عن والده[226]، فهو أبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم (– 232 هـ)[227]، وهو ممن اجتمع عندهم علم البصرة والكوفة في بغداد كابن حبيب والسكري[228]. إلا أنه كان أكثر تخصصا بالرواية عن الأصمعي وأبي عبيدة البصريَيْن، فقد روى كتبهما «وكان لا يفارقها»[229]، وكان يملي من الكتاب[230]، « ولم يكن له حفظ»[231]، ووُصفت مروياته بأنها « كتب مصححة، قد لقي بها العلماء، وضبط ما ضمنها»[232].

---

(223) الأغاني 77/24 ، وانظر ما سبق في ص 41.

(224) كان أحد أجداده الأقربين، وهو مرة بن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن قيس بن سعد بن عجل، شاهدا حاضرا يوم القتال، وله فيه شأن ومشاركة. انظر (الأغاني) 63/24-64.

(225) انظر ما سبق في ص 46، وسنعود إلى تفصيل القول في هذا الجانب بعد قليل.

(226) انظر ما سبق في ص 56.

(227) انظر ترجمته وأخباره في (الفهرست) ص 89، و(نزهة الألباء) ص 159، و(معجم الأدباء) 77/15.

(228) انظر (مراتب النحويين) ص 144 فما بعدها، وما سبق في ص 48–51.

(229) الفهرست ص 89 ، وانظر (نزهة الألباء) ص 159.

(230) نزهة الألباء ص 160.

(231) معجم الأدباء 77/15.

(232) المصدر السابق 77/15.

وكل ذلك يصحح روايته لقصة يوم ذي قار عن أبي عبيدة، وأنه لم يكتف في ذلك بالسماع وحده، وإنما اعتمد أساسا على أمالي أبي عبيدة عنها وعن غيرها في كتبه، وعلى كتب هشام أيضا. فهي رواية شفوية في أكثرها عند المتقدمين، ولكنها وصلت إليه مكتوبة في كتب أبي عبيدة وهشام، ومع ذلك بقيت متميزة كما يفهم من قول أبي الفرج: «وأضفت إلى ذلك رواية الأثرم عن أبي عبيدة »، وكما يفهم من اقترانها ببعض الشروح اللغوية التي يضيفها الأثرم نفسه.

فقد اجتمعت رواية ابن الكلبي المكتوبة في بعض أصولها، مع رواية أبي عبيدة الشفوية أصلا، عند أبي الفرج الأصفهاني، بحكم تأخره ووفرة ما حصل لديه من تراث العرب وتاريخهم وأدبهم. وكل ذلك تؤيده الفروق الواضحة بين صيغتي الروايتين، وما تضمنته رواية ابن الكلبي خاصة من نصوص رسائل وأشعار وأمثال وخطب وإشارات وتفاصيل، على نحو ما تؤيده الأصول المكتوبة التي أخذ منها هشام الكلبي وسائر الكوفيين روايتهم، سواء ما تعلق منها بيوم ذي قار وما تعلق بعدي بن زيد.

الفصل الثاني
متن القصتين والتمييز فيهما بين المسموع والمكتوب

المبحث الأول:

الأدلة من متن رواية أبي عبيدة على غلبة المسموع فيها على المكتوب:

إن رواية أبي عبيدة لقصة يوم ذي قار،كما هي مدونة في شرح النقائض وتاريخ الطبري، تدل في صياغتها وحجمها وقلة نصوصها على أنها خفيفة الحمل، وأن ألسنة الرواة تداولتها واتسعت لها ذاكرتهم[233]. ومع ذلك لا نستبعد أن تكون بعض أخبارها ونصوصها مأخوذة من أصول مكتوبة موروثة عن دواوين القبائل التي أدرك أبو عبيدة شيوخها وعلماءها وروى عنهم[234].

فقد كان يعتمد في كتابه (الأيام)، الذي أخذت منه أخبار يوم ذي قار، على مدونات مكتوبة قبله، إلى جانب التقاطه من أفواه الرجال؛ كما دل على ذلك كلامه الذي حافظ عليه صاحب (المزهر) من كتاب (الأيام) نفسه، وهو قوله: « وقال أبو عبيدة في كتاب (أيام العرب): **وجدت في كتاب** لبعض ولد أبي عمرو بن العلاء : أخذ عن سليط بن سعد اليربوعي، أن الحوفزان أغار على بني يربوع فنذروا به، فذكر قصة»[235]. وقال أبو عبيدة أيضا في هذا المعنى: « **وُجد كتاب** يقال له المجلة وإذا فيه: ألا إن أشعر العرب أبو ذؤيب»[236].

وذلك ما يفهم من اكتفاء الطبري - وهو المعروف بتدقيقه في الرواية وسلوكه فيها مسلك المحدثين[237] - بتدوين خبر يوم ذي قار وحده دون غيره من سائر أيام العرب[238]، بعد أن ضم إليه قسطا من أخبار عدي بن

---

(233) انظر تفصيل ذلك في ما سبق في ص 46.

(234) انظر ما سبق في ص 45-46.

(235) المزهر 168/1، وهذا ما يسمى بالوِجادة كما سبق بيانه، انظر ما سبق في ص 43، 56 حاشية 206.

(236) المفضليات ص 419 نقلا عن (نقائض جرير والأخطل) المنسوب لأبي تمام ص 30.

(237) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره ..) ص 42.

(238) انظر (الكامل) لابن الأثير 502/1.

زيد، وكلاهما مقترن عنده بتاريخ الفرس والمناذرة، واحتج لذلك بقوله: «إذ كنا نريد أن نسوق تمام التاريخ على مُلك ملوك فارس، ونستشهد **على صحة ما روي** من أمرهم بما وجدنا إلى الاستشهاد به سبيلا »[239]. والشواهد المقصودة هنا هي الوثائق المكتوبة المحفوظة كما سنبين لاحقا.

وإلى هذا المعنى يشير أحد الباحثين المعاصرين فيقول: «ولا نستبعد أن قدرا كبيرا من روايات الأيام وسواها من التراث الأدبي القديم الذي انتهى إلينا إنما كان مدونا في كتب وصحائف»[240].

ومما يؤيد ذلك هذه الاختلافات في الصياغة والمتن بين رواية صاحب الأغاني لخبر يوم ذي قار عن هشام الكلبي وأبي عبيدة معا، وروايته في شرح النقائض وتاريخ الطبري عن أبي عبيدة وحده. فقد اندمجت رواية أبي عبيدة عند الأصفهاني في رواية هشام حتى امحت معالمها فيها أو كادت، ولم يبق منها إلا أسسها الكبرى من الوقائع والأحداث، وأضيفت إليها عناصر عديدة تربطها في شكلها وسياقها العام بقصة حياة عدي بن زيد أكثر مما تربطها برواية أبي عبيدة المتميزة. وهو ما يدل على أن هشاما الكلبي، وهو معاصر لأبي عبيدة، اعتمد في روايته للقصتين معا: قصة يوم ذي قار، وقصة حياة عدي بن زيد، على أصول مكتوبة .

ومن الدلائل النصية على ذلك بعض الشروح اللغوية التي يضيفها ابن الأعرابي والأثرم معا، فقد تميز المتن الأصلي العتيق بألفاظ مستعصية احتاجت إلى أن يشرحها العلماء للمتأخرين[241]. ومنها المقطوعات الشعرية العديدة التي احتوتها القصة، ويصعب أن تحتفظ بها الذاكرة وحدها[242]. ومنها رسالتان جيدتان متبادلتان بين كسرى وهانئ بن مسعود، جاء بعدهما قوله: «فلما ورد كتاب هانئ بهذا.. »[243]. ومنها حضور كاتب كسرى معه، قال: « فقام إليه عمرو بن عدي بن زيد العبادي، وكان كاتبه وترجمانه

---

(239) تاريخ الطبري 628/1، وسنعود إلى تفصيل القول في هذه المسألة في فرصة قادمة.

(240) أيام العرب قبل الإسلام 32/1.

(241) كتاب الأغاني 53/24، 64،71.

(242) المصدر السابق 57/24-60 ، 71 فما بعدها.

(243) المصدر نفسه 60/24.

بالعربية في أمور العرب»[244]. ومنها خطب ومحاورات جيدة تتخللها أمثال عديدة، حتى كادت تتكون كلها من الأمثال على النمط الذي وردت به بعض النصوص عن العهود الغابرة[245]. ومنها مقارنة الأصفهاني بين الروايات وإيراد مواضع الاختلاف بينها[246].

فكل هذه إشارات إلى أن قصة يوم ذي قار عند الأصفهاني عن ابن الكلبي مأخوذ بعضها عن أصول مكتوبة لا تتسع لها الذاكرة، وربما لا تحتملها أصلا كالرسائل السلطانية مثلا[247].

على أن فيها عناصر إسلامية واضحة لا يشك قارئها على أنها مقحمة دخيلة، وأنها من إضافات الرواة المتأخرين الذين تداولوها شفوية ومكتوبة، منها قول أحد الشعراء:

« فأوصيهم بالله والصلح بينهم.. »[248].

وما جاء على لسان كسرى مخاطبا جنده: « إذا فرغتم من عدوكم... وعهِد كسرى إليهم... »[249]. ومنها قول الراوي عن أحد خطباء القوم: «فحمد الله وأثنى عليه »[250]. وقول هانئ بن مسعود ضمن خطبته في تحريض قومه على القتال: «فتحٌ لو كان له رجال »[251]. وقول الراوي أيضا: «وضرب الله وجوه الفرس فانهزموا »[252]. فكل هذه صيغ معهودة متداولة بكثرة في كتب التاريخ الإسلامي.

---

(244) نفسه 61/24.

(245) نفسه 64/24، 57، 70.

(246) نفسه 63/24، وانظر ما سبق عن اعتماده على كتب ابن الكلبي وغيره من المتقدمين في ص 51-53 ، 60.

(247) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 60، 63، 81، فما بعدها.

(248) الأغاني 58/24.

(249) المصدر السابق 62/24 ، وهذا الصنف ناتج عن ترجمة كلام كسرى إلى العربية.

(250) المصدر نفسه 64/24.

(251) نفسه 70/24.

(252) نفسه 72/24.

ومنها أيضا الأحاديث الملحقة بهذه الرواية، وهي في الإشـــادة بقبيلـــة ربيعـــة والدعاء لها، فأكثرها ظاهر الوضع والكذب، ولم يرد منها عنـــد الطـــبري ســـوى قوله عليه السلام: «اليوم انتصفت العرب من العجـــم»[253]. ومـــن ذلـــك أيـــضا عبارات غير فصيحة كقوله: «فموَّت منهم خمسة نفـــر..»[254]. وقولـــه: « فـــإذا رجلٌ أصلع الشعر »[255]. فهذه كلها من أمـــارات التـــصرف في الـــنص وعـــدم الاحتفاظ به كما ورد في أصوله الأولى، ولعلها من نتائج الخلـــط بـــين روايـــتي أبي عبيدة وابن الكلبي على أيدي المتأخرين ومنهم الأصفهاني.

وكل هذه الاختلافات والفروق بين الروايتين تؤيد مـــا انتـــهينا إليـــه ســـابقا من أن روايـــة أبي عبيـــدة البـــصري لقـــصة يـــوم ذي قـــار شـــفوية في أكثـــر أصولها[256]. وقد يستعين فيها رواتهـــا الأوائـــل، ومنـــهم أبـــو عبيـــدة نفـــسه، بوِجادات وتقاييد ووثائق قبلية، حافظ عليها علماء بكـــر بـــن وائـــل وشـــيوخها المعمرون؛ في حين أن رواية ابن الكلبي عن الكوفيين وغيرهـــم مكتوبـــة في أكثـــر أصولها، وقد يكون الأصل الأول فيها هو كتاب خـــراش بـــن إسماعيـــل العجلـــي (أخبار ربيعة وأنسابها) الذي رواه عنه هـــشام كمـــا رواه عنـــه والـــده[257]، ثم تداوله الرواة بعد ذلك وتصرفوا في عبارته ونصوصه بغير مـــا نـــوع مـــن أنـــواع التصرف غير المخل.

أما أن تكون قصة يـــوم ذي قـــار وأخبـــاره مدونـــة في قـــصور الحـــيرة وأديرتها، محافظا عليها، مكتوبة عنـــد أهلـــها مـــن النـــصارى وغيرهـــم؛ إلى أن استخرجها ابن الكلبي وأضرابه، كما استخرجوا منها معظـــم تـــاريخ المنـــاذرة في علاقتهم بالفرس[258]، ومنه قصة عدي بـــن زيـــد كمـــا ســـنرى، فـــإن ذلـــك مستبعد جدا، ولا تشير إليه النصوص التي بين أيـــدينا، ولا تقبلـــه طبيعـــة المعركـــة

---

(253) تاريخ الطبري 207/2، وقارن بالأغاني 76/24.

(254) الأغاني 56/24، وهي صحيحة ولكنها قليلة الاستعمال في اللغة الفصيحة.

(255) المصدر السابق 67/24، الصحيح : أصلع الرأس .

(256) انظر ما سبق في ص 45-46.

(257) انظر ما سبق في ص 57 فما بعدها.

(258) انظر ما سبق في ص 24-25.

في حد ذاتها. فنهايتها ليست مشرفة للفرس ولا لمن كان إلى جانبهم من العرب، ولا مصلحة لهم جميعا في تخليد أخبارها وتدوينها. ثم إنهم قبل ذلك كله قد عاشوا بعد الحرب حالة احتضار لم تدم طويلا، وقد لقي كاتبهم عمرو ابن عدي بن زيد العبادي حتفه أثناء القتال[259].

ومن ثم كان رواة العرب كما يسميهم الأصفهاني[260] مصدرها الأول، وفي طليعتهم فراس بن خندق من بني قيس بن ثعلبة عند أبي عبيدة[261]، وخراش بن إسماعيل العجلي عند ابن الكلبي[262]؛ وكانت إرثا مشتركا بين من كان منهم، في ظل الإسلام، من أهل البصرة ومن كان من أهل الكوفة، وغلب عليها الطابع الشفوي، لأنه أساس الرواية عند المسلمين[263]. ولذلك كله رواها أبو عبيدة دون مقدماتها، وفصلها الأصفهاني عن تلك المقدمات، وهي التي تضم أخبار عدي بن زيد وقصة حياته التي نرجح أن أكثرها مأخوذ من أصول مكتوبة في معابد الحيرة وقصورها.

_افتراضات خاطئة أدت إلى نتائج فاسدة:

ويجدر بالذكر هنا أن باحثا معاصرا قد انتهى من المقارنة بين الروايتين إلى نتيجة مخالفة لهذه التي انتهينا إليها، فقال ملخصا رأيه:

«ولست أستبعد أن يكون أبو عبيدة قد رتب يوم ذي قار مثلا ترتيبا متكاملا له بداية ونهاية، وتداخل الأحداث نفسها بالأحداث العارضة. لكنني أستبعد أنه أسرف في حكاية الوقائع الحربية أو التاريخية وفق معطيات المؤرخين، بل أعطى وجوه ذلك وجزئياته التي لا يلتفت إلى سرها المؤرخون،

---

(259) الأغاني 73/24.

(260) المصدر السابق 133/2، وانظر ما سبق في ص 46، وهم الذين سماهم أبو عبيدة في سنده بعلماء العرب. انظر ما سبق في ص 31.

(261) انظر ما سبق في ص 39 فما بعدها .

(262) انظر ما سبق في ص 57 فما بعدها .

(263) انظر ما سبق في ص 22.

لكن كتاب الأغاني كان قد أضاف إلى سند الرواية أسماء رواة كان حشرُهم هو السبب في عدم إدخال يوم ذي قار متكاملا في كتاب أبي عبيدة»[264].

وهذا رأي غريب حقا، يدل من بين ما يدل عليه على أن المنطلقات الفاسدة تؤدي دائما إلى نتائج أكثر فسادا وخطلا.

فقد افترض الباحث المحترم منذ البداية أن ما نملكه من رواية أبي عبيدة ما هو إلا مقتبسات ابن حبيب من كتابه الأيام، وقد بينا سابقا خطأ هذا الرأي[265]. وافترض ثانيا، برغم عدم وجود أي دليل نصي صريح وصعوبة الحصول عليه، أن كتاب الأيام لأبي عبيدة، هو في أصله ملحمة متصلة، أو عدة ملاحم كالملاحم القديمة تماما، ترتبط بالأدب أكثر مما ترتبط بالتاريخ، وهو لذلك قصص متصلة مترابطة، ولا تمثل قصة يوم ذي قار إلا فصلا من فصولها. وتبعا لذلك، ووقوعا منه تحت تأثيره، ذهب إلى أن «يوم ذي قار ضم حياة عدي بن زيد وشعره »[266]، أي أنه قصة واحدة مترابطة مرتبة، تضم قصة حياة الشاعر المشهور وقصة الحرب معا.

وإنها لكذلك حقا من حيث المتن والمحتوى، لكنها ليست كذلك من حيث المصادر والأسانيد، ولا من حيث الترتيب على النمط الذي ذكره المؤلف.

فقد خلت قصة يوم ذي قار الفعلي من أي خبر من أخبار الشاعر عدي بن زيد كما رأينا سابقا. وقد تجاهل المؤلف تماما اكتفاء أبي عبيدة بخبر الحرب وحدها، وكذا الفصل في المصادر المختلفة، ومنها كتاب الأغاني، بين أخبار عدي بن زيد وقصة يوم ذي قار. وبسبب ذلك كله اتهم الأصفهاني بأنه يحشر في كتابه الأسانيد وأسماء الرواة دون العناية بتمييز مروياتهم؛ فقد

---

(264) كتاب أيام العرب قبل الإسلام 123/1: جمع وتحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي.

(265) انظر ما سبق في ص 38–39 حاشية رقم 101، وانظر ترجمة ابن حبيب في ص 48.

(266) كتاب أيام العرب قبل الإسلام 68/1.

وقفت أسانيده في نظره سدا منيعا أمام تحقيق الجمع بين أخبار عدي بن زيد وأخبار يوم ذي قار في قصة واحدة متصلة الحلقات، وهو ما يعنيه المؤلف بالتكامل.

وهذا كله ضرب أخماس في أسداس لا نريد الدخول في تفاصيله مخافة التكرار، ونترك للقارئ المحترم النظر فيه في ضوء ما تقدم؛ وإنما أردنا أن نلفت الانتباه إلى ما اكتنف المسألة من علل عند المحقق الفاضل، وأبرزها الإسراف في الافتراض، والقفز على منطوق النصوص، والإعراض عن دراسة الأسانيد، وهي مفتاح تحقيق أي نص قديم. وقد قرر المؤلف التقليل من جدواها منذ البداية[267].

المبحث الثاني:

الأدلة من متن رواية ابن الكلبي على غلبة المكتوب فيها على المسموع :

ولا تختلف رواية ابن الكلبي لقصة حياة عدي بن زيد وأخبار أسرته كثيرا عن روايته لقصة يوم ذي قار كما رواهما معا صاحب الأغاني، فهما متشابهتان في أكثر من جانب، وخاصة من حيث لغة الكتابة وطريقة الرواية، ومن حيث وفرة الشواهد والأدلة على أن أكثر نصوصهما والعناصر الأولية لمتون أخبارهما مأخوذة من أصول مكتوبة.

ففي كل خبر من أخبار عدي بن زيد دلائل على أن الذاكرة البشرية وحدها لا تتسع لاحتوائها، فاللغة في معظمها لغة أدبية ممتعة، تبدو بما فيها من سجع وتنميق أحيانا كأنها مقصودة لذاتها، وأنها ناتجة عن روية، وخاضعة لتهذيب. وفيها مختارات شعرية كثيرة مقترنة بشروحها، وبالإشارة إلى إحاطة الرواة بالأصول التي اختيرت منها، ومعظمها لعدي بن زيد. وفيها خطب

---

(267) انظر (كتاب أيام العرب قبل الإسلام) 37/1.

ومحاورات ورسائل، منها ما هو طويل وما هو قصير، مع الإشارة أيضا إلى تدوين بعضها وتناقله وتوارثه وخضوعه للترجمة. وفيها أيضا عبارات وثنية منقولة بنصها، ويكاد ينعدم فيها الدخيل الإسلامي الواضح، خلافا لما لاحظناه في قصة يوم ذي قار. وفيها وقوف عند جزئيات وتفاصيل واختلافات، لا يشك قارئها أن مصدرها هو المقارنة بين نصوص مكتوبة، والبحث فيها بروية وهدوء عن مواضع الخلاف، وتلك هي طريقة أبي الفرج كما قدمنا[268].

وحياة عدي بن زيد في حد ذاتها، ومنها أخبار أسرته، كما ترويها الرواية، من الأدلة القوية على أن مصدرها هو الوثائق المكتوبة. فقد كان أهله ورجال أسرته من نبلاء الحيرة وسادتها، لا تختلف مكانتهم عند سكانها وعند ملوك فارس، عن مكانة ملوك المناذرة؛ حتى إن والده زيدا تولى إمرة الحيرة فترة من الزمن[269]، وتولى عدي نفسه تربية النعمان بن المنذر وتثقيفه وتهييئه للملك[270].

إلا أنهم اختصوا بالكتابة في دواوين الدولة واستأثروا بها، وتوارثوها كابرا عن كابر، فقد كان عدي ومعظم آبائه وإخوته وأبنائه كتابا لدى الفرس، وتراجمة لهم من العربية وإليها، وتعلموا الكتابة الخطية واللغة الفارسية من أجل ذلك. وشطرٌ مهم من قصته وأخباره مبني على التكاتب والتراسل بينه وبين إخوته، وبينهم وبين كسرى، وبينهم وبين النعمان، وبين كسرى والنعمان، وبينه وبين العرب. وكثير من هذه المراسلات يحتاج إلى الترجمة من الفارسية وإليها، وهي من الرسائل السلطانية لإمارة المناذرة ودولة الفرس، التي تحرصان على المحافظة عليها وتخليدها. ولا أحد أحق بذلك وأقدر على القيام به ممن تولى كتابتها أو ترجمتها، وهم عدي بن زيد وسائر الكتاب من أسرته،

---

(268) انظر ما سبق في ص 51-53، 60.

(269) الأغاني 103/2-104.

(270) المصدر السابق 105/2-107، و(تاريخ الطبري) 194/2.

وخاصة أنها تعنيهم مباشرة، وأنهم نصارى كمعظم أهل الحيرة آنذاك[271]. ومن ثم كان تاريخهم تاريخ المناذرة أنفسهم، وكانت أخبار هؤلاء وأولائك مشتركة متداخلة، على نحو ما هي متداخلة أيضا مع تاريخ دولة الفرس قبيل ظهور الإسلام.

فلا غرو إن بقيت آثار عدي وآله مدونة مع آثار المناذرة وأخبارهم في قصور الحيرة وأديرتها، حتى استخرجها منها الأخباريون الأوائل، وأكثرهم من علماء الأنساب، كابن السائب الكلبي وابنه هشام، وخراش بن إسماعيل وأضرابهم، ممن انتصبوا لتدوين تاريخ العرب والمسلمين من خلال تدوين أنسابهم[272].

ومن الأدلة على ذلك كله من متن القصة، استهلالها بنسب عدي بن زيد الذي رفعه الراوي إلى نزار العدناني؛ فيبدو أنه مأخوذ من كتب الأنساب الأولى التي فقد أكثرها، على نحو ما فقدت معظم كتب هشام ابن الكلبي، ومن ضمنها كتابه الخاص بعدي بن زيد[273]؛ وهو ما فعله أيضا عندما هم برواية خبر زواج عدي بهند بنت النعمان، فقد افتتحه بسلسلة نسبها القحطاني[274].

ومنها قوله في عدي: « وكان نصرانيا، وكذلك كان أبوه وأمه وأهله»[275]. وقوله في جده حماد: «فكان حماد أول من كتب من بني أيوب، فخرج من أكتب الناس، وطُلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر »[276].

---

(271) انظر (الأغاني) 97/2، 105.

(272) انظر ما سبق في ص 15 فما بعدها.

(273) الفهرست ص 147. والاستهلال بالنسب ظاهرة عامة في كتب التراجم، تستمد أصولها ومشروعيتها من أسبقية علماء الأنساب إلى التدوين التاريخي.

(274) الأغاني 128/2.

(275) الأغاني 97/2، وانظر ص 105 منه. ولذلك يقال في نسبه العبادي، نسبة إلى العباد، وهم « قبائل شتى من بطون العرب، اجتمعوا بالحيرة على النصرانية، فأنفوا أن يقال لهم عبيد، فينسب الرجل عبادي » (الاشتقاق) ص 11، وانظر ص 217 منه.

(276) الأغاني 100/2

ومنها تعلم عدي الكتابة بالعربية والفارسية، والرمي والفروسية، واللعب بالصولجان، كعادة أشراف الفرس؛ لأنه وإخوته «كانوا أهل بيت نصارى، يكونون مع الأكاسرة، ولهم معهم أكل وناحية، يقطعونهم القطائع ويجزلون صلاتهم»[277]. فاعتبروه من االأساورة[278]، **وأثبته كسرى في ديوانه مع أولاد المرازبة**، واتخذه كاتبا له[279]. « فكان عدي أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى... فلم يزل بالمدائن في ديوان كسرى، يؤذن له في الخاصة، وهو معجب به قريب منه »[280].

ومنها قوله عن كسرى: «فقال لعدي بالفارسية..»[281]. وقوله في الاحتيال على قتل عدي: «**فكتبوا** كتابا على لسانه إلى قهرمان له، ثم دسوا إليه حتى أخذوا الكتاب منه، وأتوا به النعمان فقرأه.. »[282]. وقوله: «فلما طال سجن عدي بن زيد **كتب** إلى أخيه أُبي، وكان مع كسرى، بهذا الشعر... فكتب إليه أخوه... »[283]. فهما رسالتان شعريتان مكتوبتان أصلا. وقوله: «فلما قرأ أُبي كتاب عدي قام إلى كسرى... **فكتب** إلى النعمان يأمره بإطلاقه... »[284]، فقال عدي للرسول: « لا تخرجن من عندي، وأعطني الكتاب حتى أرسله إليه... »[285]. وقوله عن زيد بن عدي: « وكان هو الذي يلي المكاتبة عن الملك إلى ملوك العرب في أمورها وفي خواص أمر الملك... وكان هذا عمل عدي... »[286].

---

(277) المصدر السابق 105/2.

(278) الأساورة جمع إسوار وهو الفارس الرامي. عجمي معرب. انظر (المعرب) ص 117.

(279) الأغاني 102/2، والمرازبة جمع مرزبان، أعجمي معرب، وهو الرئيس من الفرس. وفي (اللسان) أنه الفارسي الشجاع المقدم على القوم دون الملك. (المعرب) ص 588-589.

(280) المصدر السابق 102/2.

(281) نفسه 108/2.

(282) نفسه 110/2.

(283) نفسه 118/2.

(284) نفسه 120/2.

(285) نفسه 120/2.

(286) نفسه 122/2.

ولم يورد الراوي كل الرسائل والخطب التي بنيت عليها القصة، وإنما أورد منها ما يراه ضروريا في السياق الذي هو فيه، وأغفل كثيرا منها، واكتفى باختصارها أو بالإشارة إليها[287]. ومن النصوص المهمة التي أوردها رسالتان نثريتان تكفيان بأسلوبهما وطريقة روايتهما للدلالة على أنهما مكتوبتان، وأنهما مترجمتان عن أصول مكتوبة، كمعظم نصوص هذه القصة وأخبارها، وخاصة تلك التي كتبت عن كسرى أو كتبت إليه.

أولاهما تلك الرسالة التي كتبها النعمان إلى كسرى بعد أن قتل عدي ابن زيد، يعتذر فيها عن قتله، ويقدم إليه ابنه زيد بن عدي ليقوم مقامه عنده[288]. فأثر الترجمة فيها أظهر من أن يُدل عليه، وأوضح من أن يُوقف عنده.

وثانيتهما رسالة المنذر الأكبر إلى أنوشروان في وصف جارية أهداها إلى الملك الفارسي[289]؛ فقد نص الراوي على أنها مكتوبة مدونة في دواوين الفرس، مع ما دُون فيها من أخبار وآثار ونصوص شعرية ونثرية، عربية وفارسية، وأنهم تداولوها بينهم وتوارثوها، إلى أن وقف عليها الرواة من جملة ما وقفوا عليه من آثارهم.

فقد قدم لها بقوله: «وكانت لملوك الأعاجم صفة من النساء مكتوبة عندهم، فكانوا يبعثون في تلك الأرضين بتلك الصفة، فإذا وجدت حملت إلى الملك... وأمر **فكتب** بها إلى النواحي »[290]. وبقوله: «وكانت الصفة أن المنذر الأكبر أهدى إلى أنوشروان جارية كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني، **فكتب** إلى أنوشروان بصفتها، وقال: إني قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق...»[291].

---

(287) قارن بما ذكرناه عن رواية الطبري في بحثنا (اثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره...) ص 63.

(288) الأغاني 121/2-122. وانظر عنها بحثنا المشار إليه أعلاه ص 89-90.

(289) الأغاني 123/2-125. وانظر عنها بحثنا المشار إليه أعلاه ص 63، 81 فما بعدها.

(290) الأغاني 122/2.

(291) المصدر السابق 123/2.

فأورد الرسالة كاملة ثم أتبعها بقوله: «فقبلها أنوشروان، وأمر **بإثبات هذه الصفة في دواوينه**، فلم يزالوا يتوارثونها حتى أفضى ذلك إلى كسرى بن هرمز »[292]، وقد حملها زيد بن عدي بن زيد كاتبه إلى النعمان بن المنذر فقرأها عليه، كما سلم له رسالة كسرى في طلب إحدى بناته تمهيدا لإيقاعه في قبضته.

وهي رسالة غزلية لا تخلو من فحش على النمط الجاهلي، بل هي جامعة لأوصاف النساء التي ترددت في شعر امرئ القيس وأضرابه من الشعراء الجاهلين[293]. وتبدو عليها آثار التكلف والصنعة والإغراب واضحة؛ ولعلها ناتجة عن الترجمة المتكررة وكثرة من تداولها من الرواة والناقلين. وهي دالة بذلك كله على ما نص عليه الراوي من أنها مدونة مكتوبة في دواوين الدولة، فهي مأخوذة منها مع سائر ما استخرج منها من أخبار عدي بن زيد وغيره.

ومن الدلائل على الأصول المكتوبة التي انحدرت منها القصة ما تضمنته من مختارات شعرية كثيرة لعدي بن زيد، وما تخللها من شروح لغوية[294]، ومن عبارات تشير إلى وقوف الرواة على معظم شعره مكتوبا مع أخباره عند من اهتم بحفظ آثار المناذرة من نصارى الحيرة، حتى لكأن القصة كلها شرح لشعر عدي على نحو ما هو معروف في أيام الجاهلية وأمثالها وشعر شعرائها.

ومن العبارات الدالة على ذلك قول الراوي ممهدا لأبيات من شعر عدي: «وهي أول شعر قاله فيما ذكر...»[295]. وقوله: « ثم كان أول ما قاله بعدها...»[296]. وقوله: « فكان أول ما قاله وهو محبوس من الشعر...»[297]. وقوله بعد أن أورد نماذج من شعره في السجن: « في

---

(292) المصدر نفسه 124/2.

(293) انظر تحليلنا للرسالة في بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره ..) ص 81 فما بعدها.

(294) انظر نماذج من هذه الأشعار ومن شروحها في (الأغاني) 102/2-103، 110-119 ، 128، 132-135 ، 147-155.

(295) المصدر السابق 102/2.

(296) المصدر نفسه 102/2-103.

(297) نفسه 110/2.

قصائد كثيرة كان يقولها فيه، ويكتب بها إليه، فلا تغني عنده شيئا. هذه رواية الكلبي.. »[298]. وقوله: « وهي قصيدة طويلة...»[299]. وقوله: «وفي سائر قصائد عدي التي كتب بها إلى النعمان يستعطفه ويعتذر إليه أغانٍ...»[300].

فكل هذه إشارات إلى أن معظم شعر عدي مكتوب أصلا بما هو كاتب من الكتاب المنشئين، يكتب إنتاجه الأدبي بنفسه شعرا ونثرا؛ وخاصة ذلك الإنتاج الموجه إلى عظماء فارس وأمراء المناذرة، ومنهم صاحبه النعمان. فلا شك أن اعتذارياته إليه من القصائد المعلقة في قصره التي وقف عليها حماد الراوية وأضرابه كما سنرى[301]، ولذلك استطاع الرواة أن يميزوا أول شعره وآخره، وما هو منه طويل وما هو قصير، وما هو كثير وما هو قليل. واستطاعوا أيضا أن يختاروا منه ما يتطلبه سياق قصة حياته، كما استطاع المغنون الأوائل أن ينتخبوا منه ما يصلح للغناء.

ومن العبارات الوثنية في القصة قول المنذر: «إن لك يا زيد عليَّ نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سبد - وسبد صنم كان لأهل الحيرة -»[302]. وقوله: « لا، واللات والعزى، لا يؤخذ مما كان في يد زيد ثفروق وأنا أسمع الصوت »[303].

أما إشارات الأصفهاني إلى الكتب التي نقل منها كعادته، ومقارناته بين الروايات التي وقف عليها مكتوبة، فكثيرة. منها قوله: «هذه رواية الكلبي. وأما المفضل الضبي فإنه ذكر..»[304]، إلى أن قال: « ثم ذكر من قصة النعمان

---

(298) نفسه 115/2.

(299) نفسه 128/2.

(300) نفسه 147/2.

(301) انظر ما سبق في ص 24-25.

(302) الأغاني 104/2. ولم نجد اسم سبد بين الأصنام العربية المعروفة، ولعله محرف عن سبك أو سبأ ، وهما من أصنام مصر القديمة. انظر (آلهة مصر العربية) 425/1-426.

(303) المصدر السابق 104/2، والثفروق قمع التمرة الذي يلي نواتها، وقد دان ملوك الحيرة للات والعزى وقدموا لهما القرابين. انظر (الشرك الجاهلي ..) ص 172.

(304) الأغاني 115/2.

وإخوته وعدي وابن مرينا مثل ما ذكره ابن الكلبي. وقال المفضل خاصة...»[305]. وقوله عندما تتفق الروايات: «قالوا جميعا...»[306]. وقوله: «قال حماد الراوية في خبره »[307]، «وقال حماد الراوية والكوفيون»[308]. وقوله رواية عن ابن حبيب: « هكذا ذكر العلماء من أهل الحيرة، وقالت رواة العرب... »[309]. وقوله: «أخبرني علي بن سليمان الأخفش في كتاب المغتالين، عن السكري، عن محمد بن حبيب، عن ابن الأعرابي، عن المفضل بن سلمة الضبي، وهشام ابن الكلبي، عن أبيه وإسحاق ابن الجصاص عن الكوفيين...»[310].

فكل هذه إشارات إلى الأصول التي نقلت منها القصة، ودلائل على أنها مأخوذة في معظمها من وثائق مكتوبة؛ فإن نصوص الرسائل والخطب والمحاورات والأشعار التي تضمنتها تمثل هيكلها العام الذي منحها مقوماتها الأساسية، ولو حذف بعضها أو جلها لاختل انتظامها وبدت مبتورة لا غناء فيها.

أما لغة الرواة الذين خرجوها وربطوا بينها فهي عباسية بلا ريب، وتبدو أحيانا قريبة من النصوص النثرية، وخاصة تلك التي تداولوها بالترجمة، لأنهم هم الذين تولوا ترجمتها وتعريبها. فالقصة مستخرجة من عدد مهم من الوثائق السلطانية، أكثرها من صنع كتاب الدواوين؛ ومنهم عدي وأبناؤه وإخوانه، وأسهمت طبيعتها التوثيقية، وصلتها الوطيدة بتاريخ الفرس والمناذرة، وأثرها القوي في وقعة يوم ذي قار؛ أسهم ذلك كله في بقائها وتداولها، فضلا عن أنها تاريخ شاعر كاتب، وأمير عربي من نزار، استطاع هو وأسرته أن يطاولوا الفرس، ويشاركوهم مجدهم وسيادتهم، فاعتز به العرب كما اعتزوا بكافة الملوك المناذرة.

---

(305) المصدر السابق 115/2.
(306) المصدر نفسه 117/2، 118.
(307) نفسه 126/2.
(308) نفسه 127/2.
(309) نفسه 133/2.
(310) نفسه 141/2، وانظر ما سبق في ص 48، 56 فما بعدهما .

أما رواية الطبري لجزء من هذه القصة عن ابن الكلبي فهي مختصرة عن هذه الأصول نفسها التي رجع إليها صاحب الأغاني، وقد حذف منها تفاصيل وإضافات جانبية، وعددا من النصوص النثرية والشعرية، واكتفى بالإشارة إليها أو تلخيصها وإيراد مقاطع منها، على عادته في الاختصار والتلخيص وتفضيل الطريقة الشفوية في الرواية والتقيد بمقتضياتها[311].

نتيجة : خضوع الروايتين لمنهج السماع الإسلامي :

يتبين مما سبق أن قصة يوم ذي قار وصلت إلينا عن طريق رواية أبي عبيدة البصري وخراش بن إسماعيل، اللذين رواياها عن رواة متقدمين من العرب، هم الذين سماهم أبو عبيدة في سنده «علماء العرب » وسماهم ابن حبيب «رواة العرب » . وهي شفوية في أكثر مصادرها، ولا تخلو من أصول مكتوبة. في حين وصلت إلينا قصة عدي بن زيد عن طريق رواية هشام ابن الكلبي عن والده، وعن حماد الراوية وغيره من الرواة الكوفيين المتقدمين، وعن خراش بن إسماعيل أيضا، وعن «علماء أهل الحيرة » كما يسميهم ابن حبيب. وهي رواية مقتبسة من مصادر مكتوبة، ولا تخلو من عناصر شفوية. فكلتا القصتين ماضية على النهج الأصيل في الرواية عند المسلمين، وهو منهج السماع الجامع بين المكتوب والمحفوظ[312].

فما هي هذه الأصول والمصادر المكتوبة؟ وهل يمكن تحديد الوثائق والمستندات التي كانت معتمد هؤلاء الرواة؟ ثم معرفة عناوين الكتب التي أودعوها مروياتهم، إن فاتنا الوقوف على كتبهم نفسها لأنها لم تصل إلينا على النحو الذي وضعها به أصحابها؟. ومنها ما لم يصل منه أي شيء.

---

(311) انظر تفصيل اختلاف روايته عن رواية الأصفهاني في ص 35-36.

(312) انظر تفصيل ذلك في بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره...) ص 12 فما بعدها، ومقدمة هذا البحث، وما سبق منه في ص 22.

الفصل الثالث

الأصول المكتوبة لقصة يوم ذي قار وحياة عدي بن زيد

المبحث الأول:

صلة حماد الراوية بآثار المناذرة ووثائقهم المكتوبة:

استظهرنا سابقا أن كتاب خراش بن إسماعيل: (أخبار ربيعة وأنسابها)، الذي رواه عنه هشام ابن الكلبي، كان معتمده في أنساب ربيعة، ومنهم عدي ابن زيد وأسرته، وأنه -كسائر كتب النسابين الأوائل- كتاب في الأخبار والتاريخ إلى جانب الأنساب[313]، وهو ما يكشف عنه عنوانه. ومن ثم لن يخلو هذا الكتاب من رذاذ من قصة حياة عدي بن زيد، فضلا عن قصة يوم ذي قار التي رواها هشام عن خراش كما سبق بيانه[314]. ورأينا أيضا أنه اعتمد على كتاب لحماد الراوية في أخبار عدي بن زيد وأسرته دون أن يذكر عنوانه إن كان له عنوان أصلا[315].

فما هي صلة حماد الراوية بأخبار عدي وأسرته، وبتاريخ المناذرة والفرس؟، وهل استقى مروياته من مصادر شفوية أم مكتوبة؟، وما هي صلة هشام بأخبار الرجل وعلاقته بالمناذرة والفرس وعاصمتهم الحيرة؟، وما هي مصادره التي استقى منها قصة عدي، واختار منها نماذج من شعره كما فعل غيره؟، ثم ما هي مصنفاته التي أودعها مروياته؟، ومن هم علماء أهل الحيرة الذين ذكرهم ابن حبيب ؟.

لقد كان لحماد الراوية (- 155 هـ)[316] صلة وثيقة بتاريخ المناذرة وبقايا آثارهم ومدوناتهم في الحيرة، ومنها آثار عدي بن زيد؛ فهو صاحب الخبر المشهور عن اكتشاف قسط من مكتبة المناذرة في عهد المختار بن أبي

---

(313) انظر ما سبق في ص 57 فما بعدها، 66،71.

(314) انظر ما سبق في ص 57 فما بعدها.

(315) انظر ما سبق في ص 56، ولم يكن المصنفون المتقدمون يهتمون كثيرا بوضع عناوين لكتبهم، وإنما يهتم بوضعها من يأتي بعدهم من كتاب التراجم كما سيأتي بيانه.

(316) انظر ترجمته وأخباره في (الأغاني) 70/6 ، و(نزهة الألباء) ص 35، و(وفيات الأعيان) 210/2، و(معجم الأدباء) 258/10، وما سبق عنه في ص 24، 55-56.

عبيد الثقفي أثناء استيلائه على الكوفة وما حولها، وهو قوله: « أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطُّنوج – قال: وهي الكراريس – ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له: إن تحت القصر كترا، فاحتفره، فأخرج تلك الأشعار، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[317].

ولا يمكن أن يكون هذا الخبر مكذوبا ولا مزيفا، قُصد به تعليل تفوق الكوفيين في رواية الشعر وتعظيم نصيبهم منه، كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين[318]. إذ أن ابن سلام، وهو البصري الرافض لأخذ الشعر من الكتب ولرواية الصحفيين[319]، يشهد بصحته وتواتره، فيرويه بدون سند وبصيغة مغايرة، ويضيف إليه ما لم يقله حماد على أهميته ومعرفته به، وهو ما كشف به عن مصير تلك الكتب، ومكان انتقالها والمحافظة عليها والاستفادة منها، فيقول وهو يتحدث عن ضياع كثير من الشعر الجاهلي: «وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بني مروان أو صار منه »[320].

ثم إن الأحداث التاريخية المتواترة التي ترويها قصة عدي نفسها تشهد بصحته وتصدقه، وتشير إلى أن دفن بعض كتب المناذرة تحت القصر الأبيض حقيقة واقعة لا مجال لردها. فالنعمان المقصود في قول حماد هو النعمان بن المنذر صاحب عدي بن زيد، وشخصية كبيرة من شخصيات قصته، ولا يحتمل، بالنظر إلى تاريخ المناذرة، أن يكون شخصا آخر غيره، وهو الذي قامت حرب يوم ذي قار بسبب قتله كما تروي القصة. فقد غضب عليه كسرى بن هرمز وهمَّ بقتله بمكيدة من زيد بن عدي بن زيد ثأراً لوالده، فحمل أهله وذخائره، وأخذ يجول على القبائل العربية، طالبا منها الحماية والجوار والنجدة.

---

(317) الخصائص لابن جني 387/1، وانظر ما سبق في ص 24-25.

(318) انظر (تاريخ الأدب العربي) لكارل بروكلمان 65/1 ، و(العصر الجاهلي) لشوقي ضيف ص 141.

(319) انظر (طبقات فحول الشعراء) 4/1، 11 ، وانظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني...) ص 12.

(320) المصدر السابق 25/1.

ويبدو أنه في هذه الفترة، على ما كان عليه من التشتت والخوف على أعدائي بن زيد إلى أن تسترى، رغبته في القيام بالملك بعد والده، فتم له ما أراد[321]؛ فلا أحد أحق بالأمانة منه أو من أهله، إن كان قد هلك قبل هلاك النعمان.

ولا ريب أن حالة التكتم على ما دفنه أو فرقه على من يثق به من خاصته وأقربائه، مضافة إلى ما كان عليه من الاضطراب والخوف والتوجس، أسهمت كلها في اعتبار ودائعه ودفائنه كلها كنوزا، فحملته الذاكرة الشعبية عن طريق الرواية الشفوية التي يكون فيها للشائعات حظ ونصيب، وكان هلاكه ونهايته قصة مثيرة مؤثرة حقا، فبقيت أصداؤها تتردد على أفواه العامة من الناس فضلا عن خاصتهم إلى عهد المختار بن أبي عبيد فما بعده.

وما كانت تلك الودائع والدفائن كلها كنوزا من الذهب والفضة والدرهم والدينار، ولكن فيها كنوزا من نوع آخر، ولعلها أغلى وأقوم قيمة عند النعمان، فضن بها وخاف ضياعها ووقوعها في أيدي أعدائه ممن لا يعرف قدرها، ومنها ما هو من أسراره وأسرار أهل بيته. فهي الوثائق الخاصة والرسائل السرية والآثار النفيسة، التي يسوؤه وقوف كسرى عليها، فأودعها قصر صديقه الأسقف النصراني. ومن المعلوم أن مكايد ودسائس عديدة وقعت في الحيرة على عهد النعمان، ومنها تلك التي ترويها القصة، وكانت الرسائل وسيلتها الأولى كما سبق القول[322].

وبهذه الطريقة وأمثالها انتقلت الآثار المكتوبة التي وقف عليها هشام ابن الكلبي كما سنرى إلى أديرة الحيرة وبيعها. وما كانت هذه الكتب والوثائق

---

(321) انظر (الأغاني) 115/2.

(322) انظر ما سبق في ص 70 فما بعدها.

التي اكتشفها المختار بن أبي عبيد، وأخبر بها حماد ووصفها، ما كانت مكتبةَ المناذرة كاملة، كما ذهب إلى ذلك غير واحد من الباحثين، وإنما كانت قسطا منها لا غير، مما له صلة بالعرب وشؤون النعمان الخاصة.

فقد انتقل بعض آثار المناذرة وكتبهم إذاً إلى الخلفاء الأمويين المتأخرين. وهي لم تكن كلها شعرا كما يفهم من كلام حماد وابن سلام، وإنما كان فيها الشعر والنثر، يستوي في ذلك ما انتقل منها إلى بني أمية وما بقي في أديرة الحيرة. وفيها تاريخ المناذرة وأخبارهم «وأمورهم كلها» كما يقول ابن الكلبي[323]؛ فقد كانت على غرار كتب الأنساب الجامعة لآثار القوم التي تستحق الذكر والتخليد، واستمر الرواة المتصلون بها، القادرون على قراءة أصولها، ينقلون منها عند بني أمية، وفي أديرة الحيرة طيلة عهد الرواية والتدوين. ومن المرجح أن نزلاء تلك الأديرة من الرهبان هم الذين يسميهم ابن حبيب علماء أهل الحيرة، وهو ما يؤكده الطبري في سياق توثيقه لمروياته عن هشام بن الكلبي[324].

وقد كان العثور على تلك المدونات التي صارت إلى بني مروان نحو سنة (66 هـ)[325]، بعد أن تأسست الكوفة بحوالي نصف قرن[326]. ولم يكن تأسيسها ليقضي على أسباب الحياة والعمران في جارتها الحيرة، فقد فتحت صلحا، ورضي أهلها - وأكثرهم نصارى كما رأينا - بأداء الجزية للمسلمين، لتتأتى لهم المحافظة على ممتلكاتهم وآثارهم[327]، فكان لهم ذلك. فظلت مدينتهم تتجاذبها أسباب الموت والحياة إلى أن عمها الخراب الشامل في النصف الأول من القرن الهجري الرابع، في عهد المسعودي (- 346 هـ)، وهو الذي وصف تطور أحوالها منذ أن تم فتحها إلى عصره فقال:

---

(323) انظر النص كاملا في ص 24، وسنعود إليه في سياق لاحق.

(324) انظر النص المشار إليه أعلاه.

(325) لم يستمر استيلاء المختار الثقفي على الكوفة أكثر من سنتين، من سنة (66) إلى سنة (67 هـ). انظر (تاريخ الطبري) 66/6، 93 فما بعدهما.

(326) أسست سنة (17هـ). انظر (تاريخ الطبري) 40/4 فما بعدها.

(327) انظر (تاريخ الطبري) 343/3 فما بعدها.

«ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الـــذي ذكرنـــا إلى صـــدر مـــن أيـــام المعتضد، فإنه استولى عليها الخراب. وقد كان جماعة من خلفـــاء بـــني العبـــاس - كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم - يتزلونها، ويـــصلون المقـــام بهـــا، لطيـــب هوائهـــا، وصـــفاء جوهرهـــا، وصـــحة تربتـــها وصـــلابتها، وقـــرب الخورنق[328] والنجف منها. وقد **كـــان فيهـــا ديـــارات كـــثيرة فيهـــا رهبـــان،** فلحقوا بغيرها من البلاد، لتداعي الخراب إليها، وأقفرت من كـــل أنـــيس في هـــذا الوقت... »[329].

فقد حافظت مدينة الحيرة إذاً على وجودهـــا وأهميتـــها الأثريـــة والحـــضارية طيلة القرون الثلاثة الأولى من الإسلام، بـــرغم نهايـــة مجـــدها الـــسياسي والإداري، واتخذها الخلفاء العباسيون الأوائل، بسبب قربهم منها، عاصمة ثانويـــة لهـــم، وكـــان يصحبهم أثناء إقامتهم بها العلماء والفقهاء والأدباء والمؤرخـــون[330]. أمـــا الخلفـــاء الأمويون في دمشق، فقـــد كانـــت أخبـــار العـــرب وآثارهـــا، وتـــاريخ الأمـــم والحضارات السابقة، تنقل إليهم منها ومن غيرها من مدن العـــراق والـــيمن وســـائر الحواضر الإسلامية، يحملها إليهم الرواة والأخباريون منذ عهد معاوية[331].

وكان حماد الراوية شيخ هؤلاء الرواة، وأبرز مـــن اخـــتص منـــهم بـــصحبة الخلفاء المروانيين المتأخرين[332]. فقد قال فيه المدائني: « كـــان مـــن أعلـــم النـــاس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتهـــا، وكانـــت ملـــوك بـــني أميـــة تقدمه وتؤثره وتستزيره، فيفد عليهم وينـــادمهم، ويـــسألونه عـــن أيـــام العـــرب وعلومها، ويجزلون صلته »[333].

---

(328) انظر ما سبق عن قصر الخورنق في ص 36.

(329) مروج الذهب 104/2-105، وانظر ما قلناه عنها في ص 23-25.

(330) قال ابن خلكان في ترجمته لابن إسحاق صاحب السيرة: « وكان محمد بن إسحاق قد أتى أبـــا جعفـــر المنصور، وهو بالحيرة، فكتب له المغازي، فسمع منه أهل الكوفة بذلك السبب». (وفيات الأعيان)277/4.

(331) انظر ما سبق في ص 12-15.

(332) انظر (الفهرست) ص 140-141، و(الأغاني) 70/6 فما بعدها، 368/23، و(وفيات الأعيـــان) 206/2، و(المعلقات سيرة وتاريخا) ص 144 فما بعدها.

(333) الأغاني 70/6 ، وانظر (معجم الأدباء) 258/10 ، و(وفيات الأعيان) 206/2.

وكانت له علاقة قوية بيزيد بن عبد الملك وبالوليد بن يزيد، يبدو أنها فتحت له أبواب خزانات الكتب التي اجتمعت عند الأمويين المتأخرين، وسمحت له بالاطلاع عليها في أصولها الأولى والأخذ منها. فقد ورد أنه كان منقطعا إلى يزيد بن عبد الملك[334]، وأن الوليد بن يزيد بن عبد الملك رد إليه وإلى جناد بن واصل ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الذي جمعه له عوانة بن الحكم[335]. وما ذلك إلا لأنهما كانا يستعينان به في الاستفادة من الوثائق والمخطوطات القديمة، وفك رموزها الخطية التي لم يكن يتقنها إلا العلماء المختصون من أمثال حماد[336]. وهي سنة سنها معاوية من قبلهما، فقد اتخذ غلمانا وموالي يقرؤون له سير الملوك الماضين وأخبارهم من دفاتر ومدونات[337]. ولعل حمادا، وهو مولى أيضا، تتلمذ على هؤلاء الغلمان، واستفاد منهم، أو من عملهم في دواوين الخلفاء الأمويين[338].

وقد كانت المكتبة الأموية في عهد الوليد عظيمة حقا، لفتت انتباه الرواة فقال أحدهم: «كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليد بن يزيد، فإذا الدفاتر قد حُملت على الدواب من خزانته، يعني من علم الزهري»[339].

وما كانت هذه الأحمال كلها من علم الزهري، ولم يقف الراوي على محتوياتها وموضوعاتها، وإنما عاين تحولها من مكان إلى آخر. وقد توفي الزهري قبل الوليد[340]، وكانت بينهما خصومة قوية كادت تودي بحياة العالم الكبير،

---

(334) نزهة الألباء ص 35 ، و(وفيات الأعيان) 207/2.

(335) انظر ما سبق في ص 14. ولاحظ اقتران ديوان العرب في هذه النصوص بالأيام والأخبار والأنساب والأشعار واللغات، فهو يشملها كلها، وهي تاريخ العرب.

(336) انظر عن صعوبة النقل عن الخطوط القديمة بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني ...) ص 6 والبحث الآتي عن تأثير كتابة القرآن في تطوير الخط العربي.

(337) انظر ما سبق في ص 14.

(338) انظر (المعلقات سيرة وتاريخا) ص 165 فما بعدها.

(339) ملحق الطبقات الكبرى ص 170، وانظر ترجمة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ـ124هـ) في (ملحق الطبقات الكبرى) ص 157-186، و(وفيات الأعيان) 177/4، و(تهذيب الأسماء واللغات) 90/1-92.

(340) توفي الأول سنة 124 هـ، وقتل الثاني سنة 126هـ. انظر (تاريخ الطبري) 252/7.

لولا أن سبق إليه أجله في عهد هشام بن عبد الملك، قبل ولاية الوليد[341]. فلا بد أن هذه الدفاتر وأحمال الكتب كانت ملكا للدولة، فيها علم الزهري وغبره، وهي تنتقل من خليفة إلى آخر منذ عهد معاوية[342]، وفيها ما هو قديم وما هو حديث، وما هو بالعربية، وما هو باللغات السريانية واليونانية والفارسية، وقام التراجمة بنقله إلى العربية[343].

وكل هذه أصناف من التراث اطلع عليها حماد الراوية أثناء انقطاعه إلى صحبة معاصريه من الخلفاء المروانيين، واستطاع تمييزها والاستفادة منها، ومعرفة مصادرها التي جاءت منها، وهو ما جعله يصف مدونات المناذرة في نصه السابق وصفا دقيقا، ويسميها باسمها الفارسي الأصلي (الطنوج)، ثم يترجمه إلى العربية[344]. ولذلك نراه يعتز بأنه يروي أشعارا لم يكن يرويها أحد غيره، ويحفظ منها ما لا يحفظه إنسان، و لم يجتمع لأحد من معاصريه[345].

وبسبب ذلك كله وُصف بأنه « أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها... »[346]، واتُّهم بالكذب والوضع والتصحيف، لأنه يروي نصوصا طال العهد بها حتى ذهب من يحفظها، وكان ينقلها من وثائق ومخطوطات عتيقة، كتبت بخط يختلف اختلافا بينا عن شكل الخط السائد في عصره[347]، وهي التي استهان بها ابن سلام، واتهم الشعر الوارد فيها كلها بالزيف والافتعال، فقال، مشيرا في الوقت نفسه إلى كثرتها وإقبال الرواة عليها: «وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، و لم يعرضوه على العلماء »[348]، وقال: « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق، ومثل ما روى الصحفيون، ما كانت إليه حاجة... »[349].

---

(341) انظر (ملحق الطبقات الكبرى) ص 183-184، و(تاريخ الطبري) 253/7.

(342) انظر كيف أحاط الوليد بذخائر هشام وأمواله وخزائنه عند احتضاره في (تاريخ الطبري) 253/7.

(343) انظر (الفهرست) ص 511، و(إخبار العلماء بأخبار الحكماء) ص 213.

(344) انظر النص في ص 82.

(345) انظر (أخبار القضاة) 34/2 ، و(الأغاني) 70/6، و(وفيات الأعيان) 206/2.

(346) طبقات فحول الشعراء 48/1.

(347) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره ..) ص 5 فما بعدها. والبحث الآتي.

(348) طبقات فحول الشعراء 1/ 4

(349) المصدر السابق 11/1.

ومن ذلك كله يبدو أن قصة عدي بن زيد وأخبار أسرته، وسائر أخبار المناذرة وآثارهم المكتوبة، ومنها ما يعود إلى القرن الثالث الميلادي[350]، نقلها حماد وغيره من أصول مكتوبة، ثم رواها عنهم الرواة وتناقلوها بينهم، ومنهم هشام ابن الكلبي الذي نص في سنده السابق على أنه أخذ جزءا من أخبار عدي من كتاب حماد[351].

المبحث الثاني:

كتاب حماد الراوية ومروياته المصنفة المجموعة من التراث الجاهلي

ومنه خبر يوم ذي قار وقصة حياة عدي بن زيد:

إلا أن الملاحظ أن حمادا، برغم شهرته برواية الآثار الجاهلية وأخبار العرب، وصلته القوية بكتب المناذرة كما بينا، لم يذكر له الرواة أي مؤلف معروف به، يقترن بذكر مادته ومحتوياته، ويتداوله العلماء منسوبا إليه في موضوع بعينه، على نحو ما فعلوا بكتب هشام بن الكلبي والهيثم بن عدي[352] وغيرهما من رواة القرن الثاني الهجري الذين أدركوه ورووا عنه. فنحن لا نجد في أخباره سوى إشارات لا تفيد هذا المعنى، ولكنها تفيد أنه ترك آثارا مدونة على شكل كتب ومجموعات في موضوعات متعددة، لا يجمعها سوى ما ذُكر من عنايته بأخبار العرب وأيامها وأشعارها وأنسابها.

من هذه الإشارات إشارة ابن الكلبي السابقة، وهي قوله في سند روايته لبعض أخبار عدي بن زيد وأسرته: «وأخذته من كتاب حماد»[353]. وتشبهها إشارة أخرى وردت في (كتاب الأغاني)، عند حديث صاحبه عن يوم الصفقة، وهي قوله: « هذا حديث المفضل. وأما ما وُجد عن ابن الكلبي في كتاب حماد الراوية... »[354]. وتشبههما معا إشارة أخرى

---

(350) انظر ما سبق في ص 23، وبحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره...) ص 60 فما بعدها.

(351) انظر السند في ص 53.

(352) انظر ما سبق عنهما في ص 19 فما بعدها.

(353) انظر ص 52.

(354) الأغاني 319/17.

وردت عن أبي حاتم السجستاني، خلال ما دونه من شعر الحطيئة وأخباره، وهي قوله: « وفي كتاب حماد الراوية زيادة في هذا الموضع بيتان... »[355].

فهل كانت هذه النقول كلها من كتاب واحد شامل لأيام العرب وأخبارها وأشعار شعرائها، فلم يجد له الرواة عنوانا أفضل من نسبته إلى جامعه دون تخصيصه بموضوع بعينه؟، أم أنها نقول مأخوذة من كتب ومدونات متعددة، لم يهتم مصنفها ولا رواتها بتمييزها بعناوين وموضوعات محددة، جريا على العادة الجارية عند رواد التصنيف والتأليف في التراث العربي الإسلامي ؟.

كلا الاحتمالين ممكن، ولا نستطيع ترجيح أي منهما بسبب وجاهتهما معا، وكل ما يمكن تأكيده واستنتاجه من هذه الإشارات، مما يتصل بسياق ما نحن فيه، هو أن حمادا الراوية تناول أيام العرب بالجمع والتصنيف، وخاصة تلك التي لها صلة بتاريخ الفرس والمناذرة، ومنها خبر يوم الصفقة وقصة يوم ذي قار وما إليها من أخبار عدي بن زيد، وقد كان الفرس طرفا قويا في كليهما. ومن ثم فمن المرجح جدا أن حمادا وقف على بعض نصوصهما وأخبارهما من ضمن ما وقف عليه من آثار المناذرة ومدوناتهم، وهو ما يؤيد ما استنبطناه سابقا من متن قصة حياة عدي بن زيد، من اعتماد رواتها على أصول مكتوبة[356].

وأما ما روي من نظره في كتابي قريش وثقيف، ورجوعه إليهما عندما استدعاه الوليد بن يزيد، فلا يفيد سوى امتلاكه لهذين الكتابين؛ وتوفرهما عنده إلى جانب عدد من كتب القبائل والأنساب وما إليها من الوثائق المشابهة[357]، ولا يفيد أنهما من تأليفه. وهو قول شبيه بقول مالك في شأن الزهري: «ولم يكن مع ابن شهاب كتاب إلا كتاب فيه نسب قومه، يعني قريشا »[358].

---

(355) مختارات ابن الشجري ص 441، وانظر مثلها في ص 456 منه في الموضوع نفسه.

(356) انظر ما سبق في ص 69 فما بعدها.

(357) انظر (الأغاني) 94/6.

(358) الإنباه على قبائل الرواة ص 13.

ولذلك كله قال ابن النديم في ترجمته لحماد: «ولم يُر لحماد كتاب، وإنما روى عنه الناس، وصنفت الكتب بعده »[359]. فقد كان منهج رواية العلم والأخبار والآداب في الفترة التي عاش فيها حماد، وهي فترة الريادة والسبق إلى أول عمل من نوعه، في ظل الإسلام، في معالجة نصوص وأخبار جاهلية، فيها ما هو شفوي وما هو مكتوب، أملته طبيعة تلك النصوص نفسها وهي في أيدي العرب الجاهليين. وهو في أصله منهج مستمد من الطريقة التي جمع بها الصحابة رضوان الله عليهم المصحف الكريم والحديث النبوي الشريف[360].

فقد وقع الرواة على نصوص الأدب والتاريخ الجاهليين، أثناء سعيهم الدائب في البحث عنها، بقصد جمعها وتصنيفها ودراستها، عند حفاظها والمحافظين عليها، غير منظمة ولا مرتبة، يختلط فيها الشعر بالنثر، والتاريخ بالأدب والأنساب، وتعزز فيها الرواية الشفوية الوثائق المكتوبة وتساندها وتفسرها. ولم تكن الآثار المكتوبة منها مضمومة بعضُها إلى بعض على شكل كتاب يحمل عنوانا معينا، ويضم موضوعا موحدا، وينقسم إلى أقسام؛ على نحو ما استقر عليه التصنيف والتأليف في عهد التدوين - وهو ما كان يقصده ابن النديم في عبارته السابقة - وإنما كانت وثائق مكتوبة وصحائف مقيدة، متعددة الموضوعات، متنوعة النصوص، وليس لها عنوان يدل عليها، ولا يجمعها إلا انتماؤها لقبيلة أو أسرة ذات شأن، وذلك مثل ما نجده عندهم مما سموه كتب القبائل ودواوينها ومجلة لقمان وما إليها[361].

فها هو ذا المسعودي عند حديثه عن الأخبار المكتوبة التي كانت تعرض على معاوية، فلا يجد لها عنوانا ولا اسما جامعا غير قوله: « يحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات »[362].

---

(359) الفهرست ص 141.

(360) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني...) ص 12 فما بعدها، وما سبق في ص 22.

(361) انظر ما سبق في ص 59 ، 63، 66.

(362) مروج الذهب 41/3، وانظر ما سبق في ص 14.

وأغلب كبار الرواة والعلماء الأوائل لم تكن لهم كتب ولا مصنفات منظمة، وكانوا يملون مروياتهم المحفوظة أو المقيدة، أخبارا وأحاديث ونصوصا مختلفة الموضوعات، ويتلقاها عنهم تلاميذهم مسموعة ومكتوبة، ثم يتولون ترتيبها وتصنيفها ونسبتها إلى شيوخهم:

فهذا عبيد بن شرية يفد على معاوية، فيسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم وغير ذلك، فيجيبه؛ ثم يأمر معاوية: «أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية »[363]. وهذا أبو الأسود الدؤلي (-69 هـ) واضع علم النحو، وليس له فيه مصنف معروف، وإنما نسب إليه مختصر في ورقات بغير عنوان[364].

وهذا أبو عمرو بن العلاء (_154هـ) المعاصر لحماد الراوية، ومروياته تملأ كتب الأدب واللغة والنحو، «وكان أعلم الناس بالعربية والقرآن وأيام العرب والشعر »[365]، وهو القائل: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير»[366]، وكانت دفاتره التي كتبها عن العرب الفصحاء تملأ بيتا له إلى قريب من السقف، ولكن الرواة لم يذكروا له كتابا واحدا. والأمثلة أكثر من أن تحصى.

وقد اقتدى العلماء والرواة الأوائل في ذلك بالصحابة والمحدثين، في جمعهم للقرآن الكريم وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديث النبوي الشريف[367]. ولم تؤلف الكتب المبوبة والمصنفات المرتبة إلا على يد الجيل الموالي لهؤلاء الرواد، الذين رووا علمهم ودونوه وتناقلوه وانتفعوا به[368]، وهي التي يقصدها ابن النديم في قوله عن حماد الراوية: «ولم يُر لحماد كتاب،

---

(363) الفهرست ص 138، وانظر ترجمة عبيد والنص كاملا في ص 12.

(364) انظر (الفهرست) ص 67، و(نزهة الألباء) ص 9.

(365) معجم الأدباء 160/11، و(وفيات الأعيان) 466/3.

(366) طبقات فحول الشعراء 25/1، و(نزهة الألباء) ص 27.

(367) انظر ما سبق في ص 17 فما بعدها، ص 22.

(368) انظر ما سبق في ص 17 فما بعدها، وبحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 27 فما بعدها.

وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده... »[369]. فقد كان معتنيا بإحصاء كتب العلماء الذين ترجم لهم في كتابه، ويذكر عناوينها التي عرفت بها، ولم يكن أي شيء من ذلك معروفا لحماد، فأطلق كلامه[370].

ولكن ذلك لن يمنع راوية متقدما على عهد ابن النديم كابن الكلبي، لا يفصل بينه وبين حماد إلا حوالي نصف قرن[371]، ولم يستقر مصطلح الكتاب بعدُ على أي مدلول موحد بين الرواة والعلماء في عهده، وكان صاحب تخصص وخبرة بالمرويات الشفوية والمكتوبة، ووقف على كثير من التراث المكتوب قبله في مختلف المراحل التي مر منها تقييده، وكابد النقل منه حتى ميز رواته وكتابه، ومقدار ما جمعه كل واحد منهم، أقول لا يمنعه ذلك من نسبة المرويات المكتوبة إلى رواتها، وإطلاق اسم الكتاب عليها، تمييزا لها عن غيرها، ووقوفا عند حدود ما رواه الراوي الذي ينقل عنه. ولذلك سمى الأصول المكتوبة التي نقل منها شطرا من قصة عدي بن زيد وأخبار المناذرة وآثارهم كتابا، ونسبها إلى جامعها حماد الراوية؛ وهو ما فعله أبو حاتم السجستاني عند جمعه لديوان الحطيئة.

المبحث الثالث:

صلة هشام ابن الكلبي بآثار المناذرة ووثائقهم المدونة، ومنها قصة يوم ذي قار وأخبار عدي بن زيد:

وتختلف صلة هشام ابن الكلبي بآثار المناذرة وكتبهم ومدوناتهم، ومنها أخبار عدي بن زيد، عن صلة حماد بها في أكثر من وجه؛ برغم أنهما يلتقيان

---

(369) الفهرست ص 141.

(370) يلاحظ أن ابن النديم أورد عناوين كتب بعض الرواة والعلماء الذين ماتوا قبل حماد، كعبيد بن شرية وصحار العبدي وعوانة بن الحكم وغيرهم (انظر الفهرست ص 138 فما بعدها)، وهذا يناقض في الظاهر قوله إن الكتب لم تصنف إلا بعد حماد، ولكن عذره أنه استعمل كلمة (كتاب) بمدلولها العلمي الاصطلاحي الذي لم تكتسبه إلا بعد عصر حماد، وقد كان لها مدلولها اللغوي الجاهلي وعدة مدلولات في القرآن كما هو معروف.

(371) توفي حماد سنة (155هـ) وابن الكلبي سنة (206هـ)، في حين توفي ابن النديم سنة(385هـ).

في الاستفادة منها والنقل منها، وخاصة ما كان منها في عهد النعمان بن المنذر صاحب عدي بن زيد وممدوحه وبطل من أبطال قصته. فقد كان هشام أوغل في الاحتكاك بتلك الآثار والأخبار، وأطول نظرا فيها وممارسة الأخذ منها. وذلك بسبب معاينته المباشرة الطويلة لآثار الفرس والمناذرة المحفوظة في أديرة الحيرة وكنائسها، واستفتاء أهلها القائمين على رعايتها من «علماء أهل الحيرة » الذين أشار إليهم ابن حبيب. ثم بسبب وقوفه على آثار الرواة المتقدمين الذين وقفوا عليها وعلى ما انتقل منها إلى بني مروان، ومنهم والده، وحماد الراوية، وابن الجصاص، وخراش بن إسماعيل، وغيرهم.

فإذا كان حماد قد اطلع على بعض كتب المناذرة وآثارهم، ومنها أشعار الفحول، والأشعار التي مدح بها النعمان وأهل بيته وما إليها من الأخبار والنصوص، وهي التي وجدت مدفونة تحت القصر الأبيض في الحيرة، ثم صارت إلى المكتبة الأموية كما رأينا[372]؛ فإن ابن الكلبي تجاوز ذلك إلى ما حُفظ من آثارهم وآثار غيرهم في أكثر من قصر ودير في مدينة الحيرة نفسها، ولا شك أنه كان أوفر وأغنى مما وقف عليه حماد. وهو ما يفسر هذا الفيض الغزير من المصنفات التي تركها ابن الكلبي عن الفرس والمناذرة وسائر العرب الجاهلين[373]، ويفسر أيضا هذا الفيض المماثل من تهم التكذيب والتزييف التي ألصقت به وبمروياته.

المبحث الرابع:

الطبري يستشهد بمرويات هشام ومصنفاته في تاريخ الفرس والمناذرة:

ولا بد هنا من إثبات النص الذي هو مفتاح ذلك كله كاملا، بعد أن أوردنا جزءا منه في ما سبق، وهو قول الطبري:

---

(372) انظر ما سبق في ص 82 فما بعدها.

(373) انظر عناوين مصنفاته في (الفهرست) ص 146–149، وعنه في (معجم الأدباء) 288/19 فما بعدها، وانظر ما سبق عنه في ص 19.

«فذكرنا ما ذكرنا من أمور جذيمة وعمرو بن عدي من أجل ذلك، (أي لأنهم كانوا ملوكا مع تبعيتهم لملوك فارس) إذ كنا نريد أن نسوق تمام التاريخ على ملك ملوك فارس، ونستشهد على صحة ما روي من أمرهم بما وجدنا إلى الاستشهاد به عليها سبيلا. **وكان أمر آل نصر ابن ربيعة، ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب، الذين هم بادية أهل العراق، عند أهل الحيرة متعالَما مثبتا عندهم في كنائسهم وأسفارهم. وقد حُدِّثت عن هشام بن محمد الكلبي أنه قال: إني كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها»**[374].

فلقد كانت عناية الطبري في كتابه منصرفة أصلا إلى (تاريخ الرسل والملوك)، ومنهم ملوك فارس، على اعتبار أنهم أصحاب دولة متمكنة، وسلطان متصل متحكم في فارس وفي جزيرة العرب، وأن الإسلام استطاع بعد ظهوره أن يزيل حكمهم، وأن يضم ممالكهم إلى دولته. وبسبب ذلك امتدت عنايته إلى ولاتهم من العرب الذين اتصل فيهم الملك والسلطان، وكانوا سندهم الأقوى في فرض نفوذهم واستمراره على القبائل العربية، وهم آل نصر اللخميون، ومنهم المناذرة الذين كانوا السلسلة الأخيرة من ملوكهم.

وكان الطبري في حاجة ماسة إلى الشواهد الموثقة عن هذه الفترة المتقدمة، لأن الرواية الشفوية وحدها غير كافية، وخاصة أن الذين حملوها وأدوها جاهليون وأعاجم، لا حظّ عندهم من أدنى شروط الرواية الصحيحة التي ابتكرها المسلمون، واهتدوا بها في كتابة تاريخهم. ونجده يكاد يصرح بحيرته أمام هذا الواقع غير المنسجم مع ما عليه جمهور علماء الإسلام الموثقين، ومنهم المحدّثون، وذلك في قوله: « إذ كنا نريد أن نسوق تمام التاريخ على ملك ملوك فارس، **ونستشهد على صحة ما روي من أمرهم بما وجدنا إلى الاستشهاد به عليها سبيلا** ».

---

(374) تاريخ الطبري 628/2، وانظر ما سبق في ص 24. وانظر ما نقله عنه الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان.

فهو يشير هنا إلى تجوزه في الرواية واضطراره إلى الاستعانة فيها بالوثائق المكتوبة بالدرجة الأولى، خلافا لما تقرر من جعلها في المرتبة الثانية مخافة التصحيف والتحريف، ويقدم اعتذاره عن هذا التصرف غير العلمي في نظره وفي نظر سائر علماء الحديث واللغة[375]. ولكننا نراه، مع ذلك، يسوق شواهده بنوع من الإصرار والثقة، وكأنه يدعو إلى ضرورة الأخذ منها والاحتجاج بها؛ برغم مخالفتها لما هو معهود من أساليب الرواية عند المسلمين.

على أنه لا مانع، في حقيقة الأمر، من إلحاقها بأضعف طرق الرواية عند العلماء، وهي التي سموها " الوِجادة "، برغم أن رواتها ومدونيها وثنيون وأعاجم، لا عهد عندهم، ولا عاصم لهم من الكذب والوضع.

ثم يفصح الطبري عن هذه الشواهد، وعن طريقة الحصول عليها ومكان وجودها، في فقرتين متصلتين متقابلتين، بعد اعتذاره السابق مباشرة؛ وهو ما يدل على ما لها عنده من قيمة وأهمية. فيقرر أن المصدر الأساسي لتاريخ ولاة الفرس على العرب، وأهمهم المناذرة المتأخرون، هو الأسفار المحفوظة في كنائس الحيرة، فأخبارهم وآثارهم «مثبتة » فيها، أي مدونة، «متعالمة عند أهل الحيرة »، وهم علماء الحيرة الذين أشار إليهم ابن حبيب، واعتبرهم مصدر روايته عن ابن الكلبي[376]. فهي معروفة عندهم، متداولة بينهم، لا مجال للطعن فيها وإنكارها، وعنهم أخذها ابن الكلبي وغيره كما شهد بذلك ونقل عنه الطبري شهادته.

فقد أقر في شهادته تلك أن « أخبار العرب، وأنساب آل نصر»، وأعمارهم وتواريخهم، وشؤون « ملكهم وأمورهم كلها»، أي تاريخهم بمعناه الواسع، استخرجها من هذه الكنائس والبيع. ولم يكن هذا الاستخراج دفعة واحدة، ولكنه تم في زمن طويل مضى عن وقت الإخبار به: «كنت أستخرج.. ».

---

(375) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره..) ص 11_12 وانظر ما سبق في ص63-64.

(376) انظر ما سبق في ص 77، 83-84.

ولم يكن الأمر أنسابا ولا تواريخ التولية والوفاة وحدها، ولا أخبار الملك وحده، وإنما هي أخبار العرب جميعا في علاقتهم بولاتهم وبملوك فارس، وسائر ما يستحق الذكر والبقاء من شؤونهم وآثارهم الخاصة والعامة، ومنها، على الأرجح، أخبار أسرة عدي بن زيد في علاقتها بهؤلاء الولاة، وقصته المثيرة مع صديقه النعمان بن المنذر، وصلة ذلك كله بحرب يوم ذي قار.

ويلاحظ أن الطبري لم يرو أخبار أي يوم آخر من أيام العرب في الجاهلية غير يوم ذي قار، وما إليه من أخبار آل نصر بن ربيعة. وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله، وهو يهم بروايتها كاملة: «لم يذكر أبو جعفر من أيامها غير يوم ذي قار، وجذيمة الأبرش والزباء، وطسم وجديس، وما ذكر ذلك إلا حيث إنهم ملوك، فأغفل ما سوى ذلك »[377].

ونحن نضيف، بناء على كلامه السابق، أنه ما فعل ذلك أيضا إلا لأن أكثر ما هو معروف من آثار هؤلاء الملوك وأخبارهم، ومنهم عدي بن زيد وأسرته، كان مكتوبا مدونا، موثوقا بروايته واستنباطه من مصادره وأصوله الأولى.

وقد تتبع الطبري ملوك فارس بحسب تواريخ ولايتهم تتبعا دقيقا، وكذلك فعل بالمناذرة وأجدادهم. فقد ساق مدد حكمهم بحسب السنوات، مرتبة ترتيبا لا مزيد عليه[378]؛ وهو ما يؤيد نقلها عن أصل مكتوب. وفي ثناياها أورد قصة يوم ذي قار وشطرا من أخبار عدي بن زيد وأسرته[379]، وأكثر روايته في ذلك كله عن هشام الكلبي، فمصدره الأول في تاريخ الفرس والمناذرة هو كتب هشام ابن الكلبي[380].

فإذا كان حماد الراوية قد وقف على بعض دفاتر النعمان بن المنذر، وهي التي تم تهريبها ودفنها تحت القصر الأبيض كما بينا، وفيها أشعار الفحول

---

(377) الكامل 502/1.

(378) انظر (تاريخ الطبري) 37/2، 90، 104، 213 فما بعدها، وانظر (مروج الذهب) 104/2، 220.

(379) انظر (تاريخ الطبري) 193/2 فما بعدها.

(380) انظر (تاريخ التراث العربي) لفؤاد سزكين 437/1.

والقصائد التي مُدح بها هو وأهل بيته كما أفادنا ابن سلام، فإنها لا تمثل إلا قليلا من كثير من آثار المناذرة وكتبهم بالقياس إلى ما وقف عليه هشام.

فقد اطلع هذا العالم الراوية على القديم والحديث من آثار ملوك الحيرة، وعلى ما هو أشمل وأوسع مما تيسر لحماد. وهما يلتقيان التقاء واضحا في قصة عدي بن زيد وأشعاره، فقد كان النعمان شخصية أساسية فيها، وقد وقف حماد على تركته الخاصة عند بني أمية. ولذلك احتاج هشام إلى روايته ليكمل بها جانبا من قصة عدي، ويسد ما فيها من فراغ لم يجد نصوصه وأخباره إلا عند حماد، ومنها أشعار عدي التي اعتذر بها إلى النعمان، والرسائل الخاصة التي كتبت في الاحتيال عليهما وتدبير قتلهما.

ولذلك كله جاء سنده على نحو من التراكب غير المعهود كثيرا في الأسانيد، وهو قوله: « سمعت إسحاق بن الجصاص - وأخذته من كتاب حماد، وقد ذكر أبي بعضه - قال... »[381]، فقد تداخلت فيه عدة روايات حتى ليبدو عند النظر الأول فيه كأن فيه تلفيقا واضطرابا أو زيادة أو نقصا، لكن الواقع على ما نرجح أن القصة لم تكن متوفرة بكامل عناصرها عند ابن الكلبي ووالده، فاضطر إلى الاستعانة برواية حماد عن المصادر التي وقف عليها.

فقد كانت قصة حياة عدي بن زيد وأسرته مندمجة مع أخبار المناذرة، وكان هو ورجال من أسرته ملوكا أو كالملوك كما أسلفنا، فتداخلت أخبارهم مع أخبار المناذرة تداخلا لا يمكن الفصل فيه بين هؤلاء وأولائك، ولا يمكن تناول أي منهما بصورة منفردة. فالرسائل متبادلة بينهم كما رأينا، والأشعار موجهة من عدي إلى النعمان، وهي قصائد مكتوبة[382]، ولم يضف إليها حماد أو غيره سوى الشروح اللغوية، والأخبار التي توضح غوامضها وتفسر إشاراتها التاريخية.

---

(381) تاريخ الطبري 193/2.

(382) انظر ما سبق في ص 69 فما بعدها.

ويؤيد ذلك كله أن معظم رجال أسرة عدي كانوا كتاب دواوين، أسهموا بقسط وافر في كتابة تلك الآثار، وفي تنظيمها والمحافظة عليها؛ وأنهم نصارى[383]، فصار إرثهم وإرث مواليهم وأعوانهم إلى سدنة المعابد ورهبان الكنائس إلى أن وقف عليه هشام وأمثاله.

المبحث الخامس:

كتب هشام ابن الكلبي عن الجاهلية وأيامها وعن المناذرة وعدي بن زيد العبادي:

وإذا كنا لا نعرف شيئا كثيرا عن محتويات كتاب حماد الراوية الذي دون فيه شذرات من قصة عدي بن زيد، بسبب تقدمه وريادته في فن التأليف كما أسلفنا[384]؛ فإن الأمر يختلف بعض الاختلاف في شأن هشام ابن الكلبي بسبب تأخره عن حماد، وبسبب إكثاره من الرواية والتصنيف، وحرص الرواة على الإحاطة بجميع آثاره؛ ولأنه يكاد ينفرد بموضوعات معينة من التاريخ الجاهلي لم يشاركه في روايتها أحد، على نحو ما انفرد حماد بأشعار لم يروها غيره. وما ذلك إلا لأنهما استقيا مروياتهما من هذه المصادر المكتوبة التي أشرنا إليها، ولم تكن متاحة ولا ميسرة لسائر الرواة. ولذلك كله عرف كثير من كتب هشام لدى القدماء، وظل الرواة والعلماء يتداولونها وينقلون منها دهرا طويلا[385].

وليس لنا نحن من سبيل لمعرفة بعض محتويات كتبه التي تتصل بموضوعنا، بعد ضياع معظم مصنفاته، سوى الاستدلال بعناوينها على ما ورد فيها من موضوعات:

فمن كتبه المذكورة الكثيرة التي يحتمل أن ترد فيها شظايا من قصة عدي بن زيد وأخبار أسرته: كتاب ملوك الطوائف، كتاب طسم وجديس،

---

(383) انظر ما سبق في ص 69 فما بعدها.

(384) انظر ما سبق في ص 88 فما بعدها.

(385) انظر عناوين مصنفاته في (الفهرست) ص 146-149، وعنه في (معجم الأدباء) 288/19 فما بعدها.

كتاب أديان العرب، كتاب الـــدفائن، كتـــاب المنـــذر ملـــك العـــرب، كتـــاب الكهان، كتاب الديباج في أخبار الشعراء.

ومن كتبه التي يستبعد أن تخلو من قسط من أخبـــار عـــدي وشـــعره ومـــن قصة يوم ذي قار: كتاب الأيام، كتاب أيام قيس بن ثعلبـــة، كتـــاب أيـــام فـــزارة ووقائع بني شيبان، كتاب بيوتات ربيعة، كتاب أخذ كسرى رهن العرب:

فكتب الأيام كلها تتصل بشكل أو بآخر بيوم ذي قار، وقـــد شـــارك بنـــو قيس بن ثعلبة على نحو ما في ذلك اليوم، وشارك فيه بنو شـــيبان مـــشاركة قويـــة، وكلاهما من قبائل بكر بن وائل التي هزمت الفرس فيه(386). وكـــان بيـــت عـــدي ابن زيد من أشهر بيوتات ربيعة التي روى هشام نـــسبها وأخبارهـــا عـــن خـــراش ابن إسماعيل(387). وكان كسرى قد طلب من بكر بـــن وائـــل مائـــة غـــلام منـــهم، يكونون رهنا عنده حتى يكف عن قتالهم بما أحدث بعـــضهم في أرض الـــسواد، ولكنـــهم رفضوا فكانت حرب يوم ذي قار، وكانت هزيمة الفرس(388).

أما كتابـــه: «كتـــاب الحـــيرة وتـــسمية البيـــع والـــديارات ونـــسب العباديين»، فهو ناتج بلا ريب عن معاشـــرته الطويلـــة لأهـــل الحـــيرة وســـكان أديرتها وكنائسها، واستبطانه لما توفر لـــديهم مـــن أخبـــار مدينتـــهم وديانتـــهم، ومنهم العرب والنصارى العباديون الذين ينتمي إليهم عـــدي وأســـرته(389). فقـــد روى عنهم نسبهم المدون عندهم، مع ســـائر مـــا إليـــه مـــن أخبـــار أشـــرافهم وسادتهم، وجمع ذلك كله في كتاب مستقل. وهو كتاب يـــصدق تمامـــا مـــا رواه عنه الطبري، من شهادته بما كان يقوم به من استخراج أخبـــار العـــرب وشـــؤون الملوك المناذرة من بيع الحيرة وكنائسها كما شرحنا سابقا(390).

غير أن كتابه: (كتاب عدي بن زيد العبادي) أدل علـــى المـــراد مـــن كـــل ما سبق، فقد خصص للرجل كتابا قائما بذاته، نظرا لكثرة مـــا تـــوفر لديـــه مـــن

---

(386) انظر ما سبق في ص 39 فما بعدها.

(387) انظر ما سبق في ص 57-58، 70-71.

(388) انظر (الأغاني) 24/62-64.

(389) انظر ما سبق في ص 71 حاشية رقم 275.

(390) انظر ما سبق في ص 94 فما بعدها.

أخباره وسيرته وأشعاره؛ فلم يسعه إلا أن يجمعها في مصنف مفـــرد، وهـــو مـــا لم يفعله مع أي شاعر آخر من شعراء الجاهلية.

ويبدو أن كل ما تفرق في كتبه الأخرى عن عـــدي وأســـرته قـــد اجتمـــع في هذا الكتاب، وأنه فيه مرتب على هـــذا النحـــو نفـــسه الـــذي رواه بـــه أبـــو الفرج، أي أنه على شكل قصة متصلة الحلقـــات، يـــؤدي ســـابقها إلى لاحقهـــا، ولا يستغني آخرها عن أولها. وإلا فـــأي شـــيء آخـــر يمكـــن أن يـــضمه هـــذا الكتاب، غير هذه القصة المتكاملة المترابطة المتصلة بما أدت إليه مـــن حـــرب يـــوم ذي قار، مع ما فيها من أشعار ورسائل وخطب تعتبر عمودها الفقري؟.

فالراجح أن أساس الترتيب الذي لاحظه باحث محترم في قـــصة عـــدي بـــن زيد وقصة يوم ذي قـــار مجتمعـــتين في قـــصة واحـــدة، ثم فـــسره علـــى غـــير وجهه[391]، هو هذه الأصول المكتوبة الـــتي نقلـــت منـــها القـــصة أولا، وهـــي عمدتها الأولى، ثم تنظيمها بعد ذلك على ألسنة الـــرواة، وفي كتـــاب هـــشام ابـــن الكلبي (كتاب عدي بن زيد العبادي).

وعن هذا الكتاب أخذ الرواة من بعـــده كـــابن الأعـــرابي وابـــن حبيـــب وغيرهما، إلى أن وصلت القـــصة إلى أبي الفـــرج الأصـــفهاني، معـــزوة دائمـــا إلى هشام، مع الاستعانة الدائمة أيضا برواية أبي عبيدة الشفوية.

المبحث السادس:

أبو الفرج الأصفهاني ينقل روايته من كتب هشام ذات الأصول المكتوبة:

ومما يؤيد ذلك كله أن ابن النديم نقل عناوين مصنفات هـــشام مـــن خـــط أبي الحسن علي بن محمد بن الزبير (– 348 هـــ) المعـــروف بـــابن الكـــوفي[392]، وهو عالم راوية من **علماء الكوفة**، جماعـــة للكتـــب، معـــروف بجـــودة الخـــط،

---

(391) انظر نص كلامه والتعليق عليه في ص 67–69.

(392) انظر ترجمته وأخباره في (الفهرست) ص 123، و(معجم الأدباء) 153/14، و(بغيـــة الوعـــاة) 195/2، و(الأعلام) 325/4.

وتوخي الضبط والإتقان، وسعة الرواية والصدق فيها. قال فيه ابن النديم: «عالم صحيح الخط، راوية، **جماعة للكتب**، صادق في الحكاية، منقّر بحاث»[393].

وقال فيه ياقوت: « هو صاحب الخط المعروف بالصحة، المشهور بإتقان الضبط، وحسن الشكل. فإذا قيل: نقلت من خط ابن الكوفي، فقد بالغ في الاحتياط »[394]. وقال فيه أيضا: « وكان ثقة صادقا في الرواية وحسن الدراية»[395]، وقال: «ورأيت **بخطه عدة كتب**، فلم أر أحسن ضبطا وإتقانا للكتابة منه »[396].

فقد بالغ ابن النديم في الاحتياط إذاً عندما قال: إنه نقل عناوين كتب هشام من خط ابن الكوفي، وهو ما فعله مع غير واحد ممن ترجم لهم في كتابه. فقد كانت كتب ابن الكوفي ومدوناته مصدرا مهما من مصادر ابن النديم، وتجمعهما معا حرفة الوراقة والنسخ، وهو قريب العهد منه، ولا يستبعد أن يكون قد لقيه ونقل عنه في حياته.

على أن أبا الفرج الأصفهاني الذي استوفى أخبار عدي بن زيد وقصة يوم ذي قار كان معاصرا لابن الكوفي[397]. وكانت كتب هذا الأخير التي ألفها أوجمعها ونسخها بخطه مشهورة بالجودة والإتقان كما رأينا، فلا شك أن الإقبال عليها في القرن الرابع فما بعده بلغ مبلغا لم يبلغه على أي كتب أخرى كما أخبرنا ياقوت، وكما دل عليه أخذ ابن النديم منها في أكثر من مرة.

فهل كانت كتب هشام هذه التي ذكر ابن النديم عناوينها نقلا عن ابن الكوفي متوفرة لديه وتمكن من كتابتها بخط يده؟ أم أنه أورد تلك العناوين في

---

(393) الفهرست ص 123، و انظر (معجم الأدباء) 154/14 ، و(بغية الوعاة) 195/2.

(394) معجم الأدباء 153/14.

(395) المصدر السابق 153/14.

(396) المصدر نفسه 153/14.

(397) توفي ابن الكوفي سنة (348 هـ)، والأصفهاني سنة (356هـ) أو (362 هـ)، وابن النديم سنة (385 هـ)

كتاب له في التراجم – لم يشر إليه ابن النديم – نقلا عن غيره دون أن يكون له حظ في الاطلاع عليها؟

ليس لدينا من النصوص ما يحسم في هذا الإشكال. غير أنه، بالنظر إلى ما توفر فيه من شروط جمع الكتب ونسخها، وحرص العلماء على الحصول عليها منه، وخاصة ما كان منها لأهل الكوفة، ومنهم هشام ابن الكلبي، يبدو أنه اطلع على معظم كتب هشام، وأنه ميز عناوينها على الأقل، إن لم يكن قد نقل منها أو نسخها كاملة.

فهل اطلع الأصفهاني على بعض هذه الكتب وأخذ منها ما أخذ، وخاصة كتاب عدي بن زيد العبادي؟.

لا يستبعد ذلك أيضا وإن لم يخبرنا به أبو الفرج، لأنه لا يذكر دائما أسماء الكتب التي يعتمد عليها، وإنما يذكر مروياته منها عن طريق إسنادها في الغالب إلى الرواة المتقدمين، وإن كان في واقع الأمر ينقل منها مباشرة كما سبق بيانه[398].

فهل يسمح لنا ذلك كله بأن نستنتج منه أن كتب هشام ابن الكلبي كانت معروفة متداولة في القرن الرابع الهجري؟

يبدو أن هذا الاستنتاج مرجح إلى حد بعيد بالنظر إلى ما سبق، وهو ما يفسر – من بعض الوجوه – هذا التكامل والوفرة، اللذين وردت بهما أخبار عدي بن زيد وقصة يوم ذي قار عند أبي الفرج عن ابن الكلبي، خلافا لرواية أبي عبيدة الشفوية كما رأينا. فقد كانت كتب هشام ابن الكلبي متوفرة بين العلماء والرواة منذ أن صنفها إلى القرن الرابع فما بعده، ولذلك كثرت الرواية عنه في أغلب كتب الأدب والتاريخ. فلا أحد ينافسه أو يدانيه في رواية الأنساب والأخبار التاريخية والأدبية المنحدرة عن الجاهلية وأول الإسلام. إلا

---

(398) انظر ما سبق في ص 48-51.

أن الكتب الكبرى والمصنفات الجامعة، ومنها تاريخ الطبري وكتاب الأغاني، سرعان ما ابتلعت كتبه وأغنت عنها، فطواها الإهمال والنسيان، فلم يبق لنا منها إلا ما لا عبرة به بالقياس إلى ما اندثر وتلاشى.

وذلك المصير نفسه هو الذي لحق ديوان عدي بن زيد، فقد عملته جماعة من الرواة كما أخبرنا ابن النديم[399]، مما يدل على أن نسخه كانت كثيرة متداولة، ولكن علماء اللغة والنحو أهملوه، ولم يستشهدوا بشعر عدي، واتهموه بالضعف واللين، فتوارى وانزوى.

[399] الفهرست ص 230، وانظر ديوانه بتحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد، دار الجمهورية، 1965.

خاتمـــــــــة

وهكذا تكتمل الدورة وتلتحم أجزاء آخـــر حلقـــة في سلـــسلة موضـــوعنا هذا، فهو حلقات متصلة مترابطة، لا ينفصل أي منها عما سبقها أو لحقها:

فالتراث الجاهلي بأدبه وتاريخه كان شفويا محفوظـــا في الـــصدور، ومكتوبـــا مطويا في الصحائف والجلود وما إليها، وتناقلته الأجيال علـــى تلـــك الـــصورة إلى أن جاء الإسلام ونزل القرآن، فـــضبطت آياتـــه وســـوره علـــى تلـــك الـــصورة نفسها، فلما احتاج المسلمون إلى جمعه كان الرجـــوع في ذلـــك إلى المحفـــوظ أولا وإلى المكتوب ثانيا، فكان أول كتاب مـــدون في الإســـلام علـــى أســـاس هـــذين الأصلين.

وفي ضوء عمل الصحابة في جمـــع القـــرآن وتدوينـــه، تـــوالى جمـــع الإرث الإسلامي والعربي، وتأسس منهج الـــسماع في الإســـلام. وكانـــت البدايـــة فيـــه بآثار الرسول عليه السلام وسيرته، ثم امتـــد إلى ســـائر فـــروع التـــاريخ والروايـــة عند المسلمين، ومنه التراث الجاهلي بأنسابه وتاريخه وأدبـــه؛ فكـــان المعتمـــد فيـــه على المسموع والمقيد معا في جميع مراحل تدوينه، مهمـــا بلغـــت مـــصادره مـــن الاختلاف والتنوع، ومهما بلغت قيمة النـــصوص المرويـــة عنـــد العلمـــاء وعنـــد جمهور المسلمين. وما قصة عدي بن زيد وخبر يـــوم ذي قـــار إلا مثـــال شـــاهق على هذا التنوع في المصادر، مع وحدة الهدف في تخـــريج النـــصوص أقـــرب مـــا تكون إلى صيغتها الأولى التي صدرت بها عن أصحابها.

وأرجو أن أكون قد وفقـــت بحمـــد الله وعونـــه، في ثنايـــا هـــذا البحـــث المتواضع، في إقامة الحجة على صدق هذه الدعوى، وفي جلاء مـــا علـــق بأذهـــان كثير من المتأدبين والباحثين عن الرواية الأخبارية والأدبيـــة، ومـــا وُجـــه إليهـــا في القديم والحديث، من ســـهام الطعـــن والاســـتهانة والتنقـــيص، وأن أكـــون قـــد برهنت أيضا على أن السند فيها لا يقل قيمة عن الـــسند في روايـــة الـــوحي عـــن الرسول عليه السلام، وعن صحابته رضوان الله عليهم.

فقد انطوت صدور كثير من رواة الأدب والأخبار على قدر غير قليل من الصلاح والتقوى، وتشبع أغلبهم بروح الإسلام وبمنهجه في رواية العلم وخدمته، والاستجابة فيه بشكل أو بآخر لتعاليم القرآن ودعوة الرسول عليه السلام؛ وكان يحكمهم المنهجُ نفسه الذي حكم علماء الحديث والسيرة. وإذا تسرب إلى صفوفهم بعض أصحاب الأهواء ومعتنقي المذاهب الدخيلة الهدامة، فإن تلك آفة عامة مشتركة بين جميع أصناف التراث العربي والإسلامي، لم ينج منها أي صنف منه، ولا أي فرع من فروعه، فلا ينبغي أن تكون سببا في نسف أنواع كاملة منه، وفي الإجهاز على آثار رجال بأغيانهم، وسيفا مصلتا على رقابهم وحدهم، دون أدنى محاولة في التمييز بين ما هو صحيح وزائف من مروياتهم.

وإذا كانت آثار الرسول عليه السلام وآثار صحابته رضوان الله عليهم قد حماها العلماء المجاهدون، وخلصوها مما لحق بها من ذوي الأهداف المغرضة، فإن التراث الأخباري والأدبي لا يزال في حاجة إلى من ينهض لخدمته، وتمييز صحيحه من زائفه. وهو عمل بدأه علماء أجلاء في شأن الشعر القديم، نظرا لصلته القوية بتفسير القرآن، ولكنه لم يمتد إلى أصناف أخرى من الأدب والتاريخ، كانت أكثر استجابة للتزيد والوضع، كالقصص والأخبار الأدبية وما إليها. وفي سياق ذلك قال ابن سلام في شأن عدي بن زيد، الذي نحن بصدد تحقيق سيرته وأخباره: «وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ويراكن الريف، فلان لسانه وسهل منطقه، فحُمل عليه شيء كثير، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف الأحمر، وخلط فيه المفضل فأكثر»[400].

فلو نظرنا إلى قصة الرجل من هذه الزاوية التي نظر إليها منها ابن سلام، وهو من ألد أعداء الصحفيين كما هو معروف، لكان لنا معها شأن آخر؛ ولربما اضطررنا إلى التوقف عند أول امتحان، أو إلى إعادة النظر في كثير من المنطلقات التي انطلق منها، أو إلى نبذ غير قليل من أخبار عدي وقصة يوم ذي

---

[400] طبقات فحول الشعراء 140/1.

قار، حتى لا يبقى منها ما ينتفع به، إلى غير ذلك من الاحتمالات. ولكن هذه قصة أخرى، لا نريد الخوض فيها هنا، ولم تكن من أهدافنا. وإنما قصدنا إلى الاستدلال على شمولية المنهج الإسلامي في الرواية، لسائر أصناف المرويات كيفما كان نوعها وموضوعها، وقد نفذنا إلى ذلك من نقطة جزئية صغيرة، لم نكن نتوقع في البداية أن العمل من خلالها سيمتد بنا إلى ما نرى من التشعب والطول. وأرجو على أي حال أن أكون قد بينت بعضا مما أريد.

والحمد لله أولا وآخرا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

-

ملحـــــــــــــــــــــق

أثر كتابة القرآن وتدوين المصحف في تطوير الخط العربي خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة (*)

أصل الكتابة الخطية العربية ومكان ظهورها:

كانت حروف الخط العربي المعروفة عند قريش أثناء نزول القرآن حديثة العهد في جزيرة العرب، لم توجد فيها إلا في زمن الجاهلية المتأخرة، جاءتها وهي لاتزال في طور التكوين، وفي مرحلة من مراحل تطورها، وقد سبقتها مراحل وأعقبتها أخرى. قال ابن خلكان في معرض حديثه عن الكتابة الخطية عند الجاهليين: «فحدوث هذه الكتابة قبل الإسلام بقليل»[1].

وهنا نجد أنفسنا أمام رأيين متعارضين حول أصلها ومكان ظهورها بهذه الصورة التي وصلت بها إلى قريش:

رأي القدماء :

فالمصادر القديمة تكاد تتفق على أنها وردت على مكة من الأنبار[2]، عن طريق الحيرة أو دومة الجندل[3]، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بَوْلان[4]، نزلوا مدينة الأنبار، وهم مُرامر ابن مُرة، وأسلم بن سدْرة، وعامر بن جَدَرة، اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة، ثم قاسوهاَ على هجاء السريانية؛ فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام؛ ثم نقل هذا العلم إلى مكة، وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه» [5].

(*) سبق نشر هذا البحث في مجلة (التاريخ العربي) التي تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة بالرباط، عدد 22 ربيع 2002 من ص 77_ 122. ومما حملنا على إعادة نشره هنا، مضافا إلى ما ذكرناه في المقدمة، ما وقع فيه هناك من أخطاء مطبعية عديدة.

(1) وفيات الأعيان 344/3.

(2) بلدة تقع على نهر الفرات قرب الحيرة، وعلى الحدود الفارسية العراقية. معجم ما استعجم 197/1.

(3) حدد البكري موقعها فقال: إنها تقع « على عشر مراحل من المدينة، وعشرين من الكوفة وعمان ودمشق، واثنتي عشرة من مصر » .(معجم ما استعجم) 565/1.

(4) بولان بن عمرو بن الغوث، جد جاهلي من قبيلة طي ، ينسب إليه. (الأعلام) 78/2.

(5) صبح الأعشى 11/3. وانظر نصا أكثر تفصيلا عن هشام بن الكلبي وغيره في (فتوح البلدان) ص 456-457، وسيأتي الخلاف في شأن الإعجام : هل هو قديم أم حديث.

وذكر عن الشعبي[6] أنه قال: «سألنا المهاجرين: من أين تعلمتم الكتابة؟، قالوا: من أهل الحيرة، وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟، قالوا: من أهل الأنبار»[7]. ونقل السيوطي عن ابن دريد رواية مماثلة لرواية ابن عباس، مع إضافات تفصيلية، فقال: «أول من كتب بخطنا هذا، وهو الجزم، مُرامر بن مرة، وأسلم بن جَدَرة[8] الطائيان، ثم علموه أهل الأنبار، فتعلمه بشر بن عبد الملك أخو أُكيدر بن عبد الملك الكندي[9] صاحب دومة الجندل، وخرج إلى مكة، فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية[10]، أخت أبي سفيان، فعلم جماعة من أهل مكة، فلذلك كثر من يكتب بمكة من قريش» [11].

والنصوص صريحة في أن حروف الكتابة العربية ابتدعها رجال من أهل الأنبار، ثم تعلمها منهم رجال من قريش، فجاؤوا بها إلى مكة، فنشروها في قبيلتهم وفي غيرها من القبائل العربية، وخاصة أهل الطائف من ثقيف. قال ابن النديم ضمن ما

---

(6) عامر بن شراحيل الشعبي ، راوية تابعي من أصل يمني، توفي سنة (103 هـ)

(7) كتاب المصاحف للسجستاني ص 9 . وانظر (المحكم في نقط المصاحف) ص 26، و (وفيات الأعيان) 344/3، و (المزهر) 342/2-343، وفي ص 349 منه رواية أخرى عن ابن عباس تخالف هذه بالتقديم والتأخير، فتجعل الحيرة منبع الخط الأول، ثم الأنبار ، ثم مكة، وقد رجح ابن خلدون هذه الرواية في مقدمته ص 349 كما سيأتي.

(8) هكذا ، والصحيح سَدَرة كما في النص السابق، وكما ورد في المصدر نفسه وهو (المزهر) 342/2، وانظر (الاشتقاق) ص 372.

(9) أكيدر بن عبد الملك الكندي، من ملوك دومة الجندل في الجاهلية، وجه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، فأسره وافتتح حصنه، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بلده وكتب له عهدا، ولكنه نقض العهد في زمن أبي بكر، فوجه إليه خالدا فقتله، وفي إسلامه خلاف. (تاريخ الطبري) 108/3- 109، 378، 385، و (تهذيب الأسماء واللغات) 124/1-125.

(10) حرب بن أمية بن عبد شمس، كان سيدا من سادات قريش في الجاهلية وقاضيا من قضاتها، وهو جد معاوية بن أبي سفيان بن حرب، عاصر عبد المطلب وفاخره ونافره، وقاد قريشا في بعض أيامها، توفي نحو سنة (558 م). انظر (المحبر) ص 132، 165 ، 173، و(المنمق) و(أيام العرب في الجاهلية) بواسطة فهرس الأعلام.

(11) المزهر 346/2 – 347، وانظر (كتاب المصاحف) ص 10 ، و (الاشتقاق) ص 372، و(الفهرست) ص 12-13.

أورده عن تطورات الخط العربي المختلفة: «وإن نفرا من أهل الأنبار، من إياد القديمة، وضعوا حروف ألف ب ت ث، وعنه أخذت العرب»[12].

فهو إذاً لم يكن حديث العهد في الأنبار[13]، ولكنه قديم فيها، ثم قام أهلها باستنباط هذه الحروف المستعملة إلى الآن من أشكالها الأولى التي انحدرت منها؛ ولعلها السريانية أو غيرها من الخطوط السامية، كما ورد في بعض النصوص السابقة.

وتكاد الروايات تتفق أيضا على أن حرب بن أمية بن عبد شمس أول قرشي كتب بهذا الخط، وأنه أدخله إلى مكة[14]، ومنها أخذته العرب. وهو قول له حظ كبير من الصحة، لأن قريشا قوم تجار كما هو معروف، والأسرة الأموية هي القوامة بالتجارة فيهم قبيل الإسلام، وكانت لهم صلات بالمراكز الحضرية في الشمال والشرق والجنوب، وكانوا بحاجة إلى استعمال الخط في معاملاتهم التجارية، فلذلك اهتموا بتعلمه ونشره، وخاصة أنه سهل الاستعمال، مستجيب بصلاحية حروفه كلها للاتصال والانفصال معا لكتابة الكلمات مهما اختلفت أوضاع حروفها، وهو ما كان مفقودا في الخطوط القديمة.

قال قائل لابن عباس: «معاشر قريش، هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي، تجمعون فيه ما اجتمع، وتفرقون فيه ما افترق، هجاء بالألف واللام والميم، والشكل والقطع، وما يكتب به اليوم، قبل أن يبعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم؛ قلت: فمن علمكم الكتاب؟ قال: حرب بن أمية. قلت: فمن علم حرب بن أمية؟ قال: عبد الله بن جُدعان. قلت: فمن علم عبد الله بن جدعان؟ قال: أهل الأنبار. قلت: فمن علم أهل الأنبار؟ قال: طارئ طرأ عليهم من أرض اليمن، من كندة. قلت: فمن علم الطارئ؟ قال: الجُلجان بن المُوهم، كان كاتب هود نبي الله صلى الله عليه وسلم بالوحي عن الله عز وجل»[15].

---

(12) الفهرست ص 13، وانظر (فتوح البلدان) ص 457.

(13) انظر قصة استقرار العرب بالحيرة والأنبار في (تاريخ الطبري) 609/1 فما بعدها.

(14) كتاب المصاحف ص 10، و (الفهرست) ص 13، و (المزهر) 342/2، و (تاريخ ابن خلدون) المقدمة ص 349.

(15) المحكم في نقط المصاحف ص 26 ، وانظر (المزهر) 349/2، و (صبح الأعشى) 13/3-14.

وفي هذا النص إشارة ضمنية إلى أن العرب كانوا يعرفون خطا آخر ليست له هذه الخصائص التي تميز بها الخط الجديد، وتفيد نصوص أخرى أنه المسند الحميري الذي نبع من اليمن[16]، ثم انتقل مع اليمنيين إلى أرجاء جزيرة العرب وخارجها في هجراتهم وتنقلاتهم المتعددة، وحدثت فيه تطورات وفروع في الأزمنة الطويلة المتعاقبة. قال ابن خلدون: «وكان لحمير كتابة تسمى المسند، حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم، ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية»[17]. وأورد السيوطي أبياتا لرجل من دومة الجندل، يمنُّ فيها على قريش بما تعلموه من بشر بن مالك، جاء فيها قوله:

وأُغنيتمو عن مسند الحي حمير وما زبرت في الصحف أقيال حميرا[18].

فقد كانت قريش إذاً تعرف هذا الخط وتكتب به. ويبدو أنه كان معروفا في غيرها من القبائل العربية، خاصة تلك التي تنحدر من أصول يمنية، ومنها الأوس والخزرج بالمدينة، ولكنه كان قليل الشيوع والانتشار، بسبب بخل اليمنيين بتعليمه كما قال ابن خلكان وابن خلدون، وبسبب صعوبة استعماله، وهو ما دفع القرشيين إلى البحث عن خط آخر يقوم مقامه، فتعلموا خط الجزم، وهو المعروف فيما بعد بالخط المكي أو الحجازي[19]، فتعرض الخط اليمني الأول للإهمال، فتقلص وانزوى. قال ابن خلكان: «جاءت ملة الإسلام وليس بجميع اليمن من يقرأ ويكتب[20]».

والحق أن خط الجزم هذا هو نفسه المستنبط في الأنبار، قياسا على الخط السرياني أو النبطي كما جاء في النصوص السابقة، وكان توليده من المسند الحميري

---

(16) قال صاحب اللسان في مادة (سند): « المسند خط لحمير مخالف لخطنا هذا، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم » . وفي (صبح الأعشى) 13/3 أنه سمي كذلك « لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام ». وهو ما يشير إليه ابن عباس أعلاه.

(17) تاريخ ابن خلدون- المقدمة ص 349. وانظر (وفيات الأعيان) 344/3.

(18) المزهر 347/2.

(19) الفهرست ص 14.

(20) وفيات الأعيان 344/3.

نفسه كما تشير إلى ذلك نصوص أخرى، منها قول صاحب (اللسان) نقلا عن أبي حاتم: «سمي جَزما لأنه جُزم عن المسند، وهو خط حمير في أيام ملكهم، أي قطع». وقال أيضا: «والجزم من الخط: تسوية الحرف»[21]، وذلك لتكون صالحة للاتصال والانفصال معا. وإلى ذلك ذهب ابن خلدون فقال: « والقول بأن أهل الحجاز إنما لُقنوها (صناعة الخط) من الحيرة، ولُقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير، هو الأليق من الأقوال »[22]. وقال ابن السيد البطليوسي، مبرزا صلة خط الجزم بكتابة المصاحف وانتقاله إلى الكوفة وغيرها: «ولأهل الحيرة خط الجزم، وهو خط المصاحف، فتعلمه منهم أهل الكوفة »[23].

رأي المعاصرين :

غير أن هذه الأصول التي أفادت المصادر القديمة أن الخط العربي انحدر منها يرفضها أكثر الباحثين المعاصرين في الموضوع[24]؛ ومنهم علماء الساميات. وهم يستندون في ذلك إلى النقوش التي عثر عليها في أماكن متعددة من شمال جزيرة العرب، وهي توضح بجلاء أن الخط العربي المكي ليست له صلة قريبة بالمسند الحميري، ولا بالفروع المنحدرة منه كاللحيانية والثمودية والصفوية ، وهي خطوط تنتسب إلى قبائل من العرب البائدة، كانت تعيش في أماكن متباعدة من شمال جزيرة العرب، وتمثل مرحلة مبكرة من مراحل تطور الخط العربي .

ويذهب هؤلاء إلى أن الخط العربي مشتق مباشرة من الخط النبطي المنسوب إلى الأنباط، وهم قوم ينحدرون من أصول عربية، واستطاعوا أن يقيموا لهم

---

(21) اللسان. مادة (جزم). وانظر (بلوغ الأرب) للألوسي.

(22) تاريخ ابن خلدون – المقدمة ص 349.

(23) الاقتضاب ص 89.

(24) انظر في ذلك (فقه اللغة) لعلي عبد الواحد وافي ص 97–106، و (الكتابة العربية والسامية) لرمزي بعلبكي ص 122 فما بعدها ، و (نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية) لفوزي سالم عفيفي ص 49 فما بعدها، (الكتابات القديمة) بحث لسيد فرج راشد في مجلة (عالم الفكر) ، عدد 4، مارس 1985 ص 219 فما بعدها ، و (بداية الكتابة العربية) بحث لمحمود حلمي في مجلة (عالم الفكر)، عدد 7، سبتمبر 1986، ص 233 فما بعدها.

مملكة واسعة في أقصى شمال جزيرة العرب وجنوب الشام، في فترات متفاوتة من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، واتخذوا البتراء عاصمة لهم، وبها اكتشفت أكثرية النقوش التي تبين تاريخهم وعلاقاتهم المختلفة، وكان نفوذهم يمتد أحيانا حتى يتجاوز دمشق شمالا ومدائن صالح جنوبا. ولما سقطت دولتهم اندمجوا مع العرب في شمال جزيرة العرب وداخلها.

وقد ثبت للباحثين في نقوشهم الأثرية أنهم يكتبون لغتهم العربية بالحروف الآرامية، وسرعان ما تطورت على أيديهم من حروف منفصلة إلى حروف متصلة، وهو الشكل الذي انتقل إلى مكة وأخذت به قريش، ومعه كثير من الخصائص الصوتية والصرفية التي احتفظت عليها عربيتهم. وقد استنبط الباحثون هذه الحقائق من نقوش أربعة، يمتد تاريخها من سنة (328 م) إلى سنة (568 م)، ورجحوا «أن تكون الكتابة النبطية قد انتقلت إلى الكتابة العربية في القرن الخامس الميلادي»[25].

إلا أن بعض الباحثين يرفضون هذه الاستنتاجات، بحجة قلة النقوش التي استندت إليها، وغلبة اللهجة الآرامية فيها[26]، ويفضلون ما أفادته النصوص في المصادر العربية، من أن الخط العربي تولد في الأنبار بالعراق، وهو مهد الحضارات القديمة، ومنبع العلم والمعرفة إلى كل الأمم والدول التي قامت في الشرق أو جاءت إليه غازية قبل ميلاد المسيح عليه السلام[27].

التوفيق بين الرأيين :

وكيفما كان الأمر فلا تناقض بين موقفي القدماء والمحدثين في ما نحن بصدد مناقشته والبحث فيه، وهو أن الخط المكي حديث العهد في قبيلة قريش، وأنه ورد

---

(25) (الكتابات القديمة) مجلة عالم الفكر ، عدد 4، مارس 1985 ص 247 بقلم سيد فرج راشد.

(26) فصول في فقه اللغة ، رمضان عبد التواب ص 60 فما بعدها.

(27) يذهب الدكتور محمد نجيب البهبيتي إلى أن ما حدث للخط العربي في الأنبار هو تطوير له، وليس خلقا من عدم كما قد يفهم من كلام الرواة، ثم حمله الناس إلى نواحي جزيرة العرب ومناطقها الشمالية، فاستخدمه الأنباط في كتابة لهجتهم، سعيا منهم وراء التعريب والتخلص من الآثار غير العربية في حياتهم وثقافتهم. انظر (تاريخ الشعر العربي ..) ص 198 و (المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين) ص 113–114، 511 فما بعدها، 562 ، 565 ، 571.

عليها من شمال جزيرة العرب. فقد نص أكثرية القدماء على أن حرب بن أميـــة[28] أول من كتب بهذا الخط من القرشيين، وأنه جلبه معه إلى مكة فتعلمته قريش، وكان ذلك عن طريق دومة الجندل[29] من الشمال. وهذا ما ثبت للباحثين مـــن خـــلال النقوش، فحرب بن أمية المتوفى سنة(568م)، لابد أنه قضى فترة من عمره في القرن الخامس الميلادي، ثم امتد به العمر إلى أواسط القرن السادس، وتلك هـــي الفتـــرة نفسها التي حددها المعاصرون لتحول الكتابة النبطية الآرامية إلى الخط المكي كمـــا أسلفنا؛ وهي نفسها التي شاع فيها الشعر الجاهلي وكثر.

ويتأكد ذلك إذا تذكرنا أن أغلب من عني بهذا الموضوع من القدماء لم يكونوا يميزون كثيرا بين الخطوط واللغات القديمة، وتختلط عليهم أسماؤها[30]، فقد نـــصوا على أن الذين استنبطوا الخط العربي قاسوا المسند الحميري على الـــسرياني، ولكـــن خبرة أكثرهم به وبغيره من الخطوط المعروفة قبل الإسلام كانت متواضعة، فيبدو أنهم لا يملكون القدرة على التمييز بين ما هو منها سرياني وما هـــو آرامـــي أونبطـــي، فاستعملوا السرياني لشهرته، وكثرة الآثار التي وصلت إليهم عن طريقه، ثم شـــيوع الترجمة من هذه الآثار في العصر العباسي.

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن وجود الكتابة الخطية بين الجاهليين في وســـط جزيرة العرب كان قبيل الإسلام بحوالي نصف قرن، ولا يـــستثنى مـــن ذلـــك إلا الأطراف الشرقية والشمالية عند المناذرة والغساسنة، فلا شك أنها كانت معروفـــة شائعة عندهم قبل هذا الوقت الذي حددناه، بدليل ما نص عليه الرواة والبـــاحثون، من أنها جاءت إلى مكة من الحيرة، ومن الشمال، فهما مصدر ورودها على مكـــة، وهو ما ينطبق على ما وصل إلينا من مراسلات المناذرة وأخبارها المختلفة، ويُكـــون عنصرا من عناصر صحتها.

---

(28) انظر ما سبق عنه في ص 112.

(29) سبق تحديد موقعها في ص 111 حاشية رقم 2.

(30) انظر (الفهرست) ص 24. ونستثني من هذا الحكم ثلة من المتخصصين من أمثال أحمد بن وحشية النبطي (– 322 هـ) صاحب كتاب (شوق المستهام إلى معرفة رموز الأقلام) الذي يعتبر مفتـــاح الخطوط السامية، وابن النديم(– 385 هـ).

أما سائر أرجاء جزيرة العرب فقد كانت الكتابة الخطية فيها قليلة نادرة، إلى درجة أن الرواة أحصوا من كان يحسنها في مكة والمدينة إبان ظهور الإسلام[31]، وهو ما صدقه القرآن الكريم بحديثه عن الأميين والنبي الأمي[32]، ونتج عنه كثرة الرسائل الشعرية الشفوية في المجتمع الجاهلي. ولذلك لا ينتظر أن تصل إلينا عنها رسائل ونصوص نثرية، ولا ينتظر أيضا أن تصل إلينا الآثار النثرية المكتوبة بالمسند الحميري إلا مترجمة منقولة إلى الخط الجديد، وإلى لغة العصر العباسي[33]، بسبب ندرته وبخل أهله به، وصعوبة استعماله وبعد العهد به[34].

وهكذا كان تقادم الخط الحميري وتجاوزه من أسباب ضياع نصوص نثرية كثيرة، لم يكتب لها البقاء، ولا نعرف عنها شيئا؛ وكانت حداثة الخط المكي وقلة شيوعه وعدم بلوغه مرحلة النضج والاكتمال أسبابا أخرى في ندرة النصوص التي كتبت بالخط المكي، ثم كانت بساطة وسائل التقييد والكتابة سببا آخر لضياع النصوص وعدم الاحتفاظ بها إلى عهد التدوين، إلى غير ذلك من الأسباب.

---

(31) انظر (المزهر) 351/2 ، و(صبح الأعشى) 15/3 ، و (فتوح البلدان) ص 457.

(32) ومثال ذلك قوله تعالى من سورة (الأعراف) 157/7 :« فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي.. » ، وقوله من سورة (الجمعة) 2/62: « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم.. » ، وقوله عليه السلام: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب.. » (النهاية) 68/1 ، وانظر (مجموع فتاوى ابن تيمية) 147/25.

(33) ذكر ابن النديم أنه وقف على بعض ما ترجم منه مما أمر المأمون بنقله إلى خزانته (الفهرست) ص 14. وورد في بعض المصادر نصوص منقولة عن النقوش القديمة، وذكر رواتها أنها كتبت بالمسند، ولكنهم ترجموها إلى العربية العباسية. انظر (مروج الذهب) 370/1 ، و (تهذيب تاريخ دمشق) 140/7 ، و (اللسان) (سند).

(34) انظر (وفيات الأعيان) 344/3، وقد صنف ابن خلكان الخط الحميري ضمن الخطوط المنقرضة التي ذهب من يعرفها، غير أن صاحب (اللسان) ذكر في مادة (سند) عن أبي حاتم، ولعله السجستاني، أنه لا يزال بين سراة اليمن من يعرفه في زمنه، أي زمن أبي حاتم، وهو ما يفسر وجود من يترجم منه للمأمون في عصره كما ذكر ابن النديم.

فلم يسلم، لأولائك الأسباب كلها، إلا نتف يسيرة من النصوص تتأرجح بين الشك واليقين، وبين الصحة والاتهام بالوضع[35]، ولا ينتظر أن يتألف منها، بسبب قلتها وتباين موضوعاتها وأغراضها، ديوان متكامل مترابط. فكان هذا كله على مـــا يظهر من العوامل الأصيلة على صرف العلماء والرواة في القرن الثاني من الهجرة عن العناية بتدوين الرسائل النثرية الجاهلية، مثلما عنوا بتدوين الشعر الجاهلي وتصنيفه في دواوين ومجموعات، وعلى نحو ما عني الصحابة من قبلهم بتدوين القرآن وجمعه بين اللوحين.

أوجه النقص والقصور التي عالجها كتاب المصاحف في الخط العربي:

وبعد مجيء الإسلام شاع العمل بالخط الجديد، ونشأت دواعـــي وأســـباب عديدة للكتابة والتقييد، وأقبل المسلمون عليه بالتعلم والاستعمال، وحملوه معهم إلى البلدان والأقطار التي فتحوها، كاليمن والعراق والشام وغيرها، حملوه علـــى تلـــك الصورة نفسها التي احتفظت بها قريش، وفيه من شوائب النقص والقصور ما اقتضى من العلماء والكتاب والخطاطين تجديد النظر فيها ومحاولة إصلاحها، بعد أن تبين لهم بتجربة الاستعمال والتداول أن تفاديها ضروري لضبط الكتابة العربية، وجعلها أداة محكمة لنقل النصوص وأدائها كما نطق بها أصحابها. وكلها شـــوائب وقعـــت في المصحف الشريف، وهو الدافع الأول لإصلاح الخط العربي وتطويره.

ويمكن تحديد هذه الجوانب في الأمور الثلاثة التالية:

أولها: غموض حروف الكتابة الناشئة وتقارب صورها، وعـــدم طواعيتـــها للاستعمال السهل الكثير.

ثانيها: خلوها من النقط والشكل لتمييز الحروف المشتبهة بعضها من بعـــض، وتيسير إعرابها والإفصاح بها.

ثالثها: خلوها من أصوات المد التي ينطبق فيها الصوت المنطوق به على الحرف المكتوب.

---

(35) انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره ..) ص 4 فما بعدها.

ا_ غموض صور حروف الكتابة الناشئة، وعدم طواعيتها للاستعمال السهل الكثير الذي يقتضي الوضوح والسرعة:

ويمكن أن نستضيء في بيان ذلك بما ذكره ابن النديم عن أنواع الخط العربي وتطوره. قال: «فأول الخطوط العربية الخط المكي، وبعده المدني، ثم البصري، ثم الكوفي. فأما المكي والمدني ففي ألفاته تعويج إلى يمنة اليد وأعلى الأصابع، وفي شكله انضجاع يسير»[36]. وقال: «لم يزل الناس يكتبون على مثال الخط القديم إلى أول الدولة العباسية، فحين ظهر العباسيون اختصت المصاحف بهذه الخطوط، وحدث خط يسمى العراقي، وهو المحقق الذي يسمى وراقي، ولم يزل يزيد ويحسن حتى انتهى الأمر إلى المأمون، فأخذ أصحابَه وكتابه بتجويد خطوطهم..»[37].

فهو هنا يرتب الخطوط العربية الأولى بحسب ظهورها وتعاقبها في الزمن إلى العصر العباسي: فقد كانت مكة مركز انطلاق الخط الجديد في القبائل العربية، ومركز انطلاق الإسلام، ثم انتقل معه إلى المدينة، ومنها انطلقا معا إلى البصرة والكوفة، وكأنه رجع إلى أصله الأول[38] الذي نبع منه في العراق، فاستوطنه وأقام به أمدا طويلا.

وهذه الخطوط كلها مسماة بأسماء المدن والبلدان التي ظهرت فيها وشاعت، فلم تعرف بين العلماء والنساخ والوراقين بعد ذلك إلا منسوبة إليها. ويظهر من أهمية المدن التي نسبت إليها في نشأة الحضارة الإسلامية، وارتباط أسمائها بظهور الإسلام وانتشاره السريع، وبالحياة العلمية والثقافية الإسلامية _ وهي مكة، والمدينة، والبصرة، والكوفة، والعراق _ مدى السرعة التي تطور بها الخط العربي، حتى استطاع في أقل من قرن من الزمن أن تتميز أشكاله وصوره، ويكتب بها كثير من النصوص

---

(36) الفهرست ص 14.

(37) المصدر السابق ص18، وانظر (صبح الأعشى) 15/3.

(38) انظر ما سبق في ص 112 – 113.

والآثار المختلفة، ويتخصص في الكتابة بكل واحد منها كتاب وعلماء؛ ولولا ذلك لما استحقت هذه الأسماء عند المهتمين بتطور الخط العربي. ولكنه تميز لا يلغي التشابه القائم بينها، ولا متابعة الفرع منها لأصله.

ويلاحظ أن المسافة الزمنية بين هذه الخطوط التي ذكرها ابن النـــديم قـــصيرة جدا، فقد تكدس أربعة منها في قرن واحد، ولم تقم الدولة العباسية حتى تفرع عنها خط آخر أغنى عنها. ويظهر من ذلك أن الحاجة إلى تحسين الخط العربي وتطـــويره مستمرة متزايدة بتزايد الحاجة إلى استعماله وتداوله، ويظهر منه أيضا عجز الخطوط الأولى عن الاستجابة لهذه الحاجة، وأنه لا بد أن كل خط يظهر يحاول أن يغطـــى على سابقه ويقطع عليه طريق الشهرة.

لذلك نرى إجماع المؤرخين على وضع حد فاصل بين الخطوط القديمة، الـــتي اختصت بها المصاحف، وبين الخط الجديد الذي تناسل وترابط في العصر العباســـي، واتخذ الكوفة أصلا له، بعد أن اكتملت أدوات تمييزه وقراءته مهما اختلفت أشكال حروفه، فاستطاع المتأخرون الاستفادة منه والاعتماد عليه:

قال القلقشندي نقلا عن أحد مصادره: « إن أول ما نُقل الخط العربي مـــن الكوفي إلى ابتداء هذه الأقلام المستعملة الآن في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس»[39]. وقال نقـــــــلا عن مصدر آخر:«والخط العربي هو المعروف الآن بالكوفي، ومنه استنبطت الأقلام التي هي الآن»[40]. وقال ابن خلـــدون: «والخـــط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد»[41].

ومعنى ذلك كله أنه يصعب على من نشأ على الخط الكوفي وشاب عليـــه في القرن الهجري الثاني، أي في عصر التدوين فما بعده، أن يتعامل مع النصوص الـــتي كتبت في الزمن الأول بالخطين المكي والمدني، وكانت نادرة الاستعمال والتداول، إلا مع نوع من الدربة والتخصص في دراسة الخطوط العربية القديمة.

---

(39) صبح الأعشى 15/3.

(40) المصدر السابق 15/3.

(41) تاريخ ابن خلدون – المقدمة ص 350.

على أن حظ النصوص المكتوبة بالخط المكي أسوأ من تلك التي كتبت بـــالخط المدني، بسبب أسبقيته في الظهور والاستعمال، وتجاوزه منذ وقت مبكر، وهو ما نتج عنه قصر عمره. فقد كان حديث العهد بمكة قبيل ظهور الإسلام كما أســـلفنا، ولم يكن في الجاهلية دواعي كثيرة لاستعماله والإقبال عليه، حتى تتضح جوانب القـــصور فيه على نحو ما حدث في الإسلام، ولذلك لم تظهر الحاجة إلى إصلاحه وتحسينه إلا في العهد النبوي، مع كتابة القرآن ورسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتشير دلائل عديدة إلى أن تطوره إلى الخط المدني، كما يقول ابن النـــديم، تم في زمـــن الخلفـــاء الراشدين، على يد كتاب المصاحف، وخاصة في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما.

فقد اتفق العلماء ،كما يروي القلقشندي، على أن الخط العربي الكوفي الذي استنبطت منه الأقلام المختلفة، يرجع «إلى أصلين هما: التقوير والبسط: فالمقور هـــو المعبر عنه الآن باللِّين، وهو الذي تكون عرقاته وما في معناها منخسفة منحطـــة إلى أسفل. والمبسوط هو المعبر عنه الآن باليابس، وهو ما لا انخساف وانحطـــاط فيـــه كالمحقق. وعلى ترتيب هذين الأصلين الأقلام الموجودة الآن»[42].

وروى عن الوزير ابن مُقـــــلة[43] هذا المعنى بصورة مفـــصلة فقـــال: « إن للخط الكوفي أصلين من أربع عشرة طريقة، هما لهـــا كالحاشـــيتين، وهمـــا: قلـــم الطومار[44]، وهو قلم مبسوط كله، ليس فيه شيء مستدير. قال: وكثيرا ما كُتبت به المصاحفُ القديمة. وقلم غبار الحَلْبَة[45]، وهو قلم مستدير كله، ليس فيه شـــيء مستقيم، فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسبا مختلفة»[46].

---

(42) صبح الأعشى 15/3.

(43) أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة، وزير شاعر أديب، وهو أحد الخطاطين المـــشهورين في العصر العباسي، نقم عليه الخليفة الراضي بالله فقطع يده اليمنى ولسانه، وسجنه إلى أن مـــات ســـنة (328 هـــ). (المنتظم) 309/6 ، و (وفيات الأعيان) 113/5-118 و (الفخري) ص 286.

(44) المراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق. وهو نوع من أنواع الـــورق خـــاص بالتوقيعـــات والمكاتبات السلطانية. وهو أصل كل ألوان الخط العربي كما ســـيأتي. (صـــبح الأعـــشى) 54/3، و(اللسان) مادة (طمر).

(45) سمي كذلك لدقته، كأن النظر يضعف عند رؤيته كما يضعف عند ثوران الغبار. (صبح الأعشى) 125/3.

(46) صبح الأعشى 53/3 ، وانظر (رسائل إخوان الصفاء)

ويهمنا هنا أن مصاحف عثمان رضي الله عنه كتبت بالخط المستقيم المبسوط، وهو ما كرره القلقشندي في رواية أخرى ذكر فيها أن «المصاحف التي كتبت في زمن أمير المومنين عثمان رضي الله عنه... كتبت بقلم جليل مبسوط»[47]، فأضاف تحديد نوع القلم الذي كتبت به وهو القلم الجليل، ولا تكون الكتابة به إلا في الطومار، لذلك نسب إليه فقيل قلم الطومار. قال ابن النديم: « قلم الجليل يدق صلب الكاتب، يكتب به عن الخلفاء إلى ملوك الأرض في الطوامير الصحاح »[48].

ومن ذلك نرى أن قلم الطومار وقلم الجليل شيء واحد، وهما مصطلحان شاعا بين الكتاب والنساخ بعد القرن الهجري الثاني، ولكن أصلهما يعود إلى عهد عثمان.

وقال ابن النديم ضمن حديثه عن خطوط المصاحف وكتابها: «أول من كتب المصاحف في الصدر الأول، ويوصف بحسن الخط، خالد بن أبي الهياج، رأيت مصحفا بخطه، وكان سعد نصبه لكتب[49] المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك، وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة المسجد النبوي بالذهب... ويقال إن عمر بن عبد العزيز قال: أريد أن تكتب لي مصحفا على هذا المثال، فكتب له

---

(47) صبح الأعشى 145/3.

(48) الفهرست ص 17.

(49) هكذا جاءت هذه العبارة في الطبعة المصرية لكتاب ابن النديم ص 15، ولكنها وردت في طبعة رضا تجدّد ص 9 على هذا النحو: وكان سعد خُصَّه يكتب المصاحف.. على اعتبار أن (خُصَّه) لقب سعد، فيكون هذا رجلا آخر غير ابن أبي الهياج، إلا أن هذه الطبعة لا تختلف في رداءتها عن سابقتها، فكلمة (خصه) يمكن قراءتها على أنها فعل ماض: خَصَّه بكتب المصاحف، فتكون بمعنى (نَصَبه) كما جاء في الطبعة المصرية، ولا يتغير المعنى في كلتا القراءتين، وهي صيغة كرر ابن النديم استعمالها في ص 67. وفي كلا الحالين تبقى العبارة على إشكالها الذي لا يؤثر كثيرا في مرادنا منها، فنحن لا نعرف شيئا عن (سعد خُصَّه)، ولا عن سعد وحده دون لقب، فلم يشتهر بين أقرباء الوليد بن عبد الملك وحاشيته وعماله من اسمه سعد، ولعله محرف عن سعيد، وهو سعيد بن عبد الملك، أخو الوليد الذي كان أبو العلاء سالم شيخ كتاب بني أمية مولى له، وهو ما يرشح سعيدا للنهوض بشؤون الكتابة والكتاب. انظر (الوزراء والكتاب) ص 68، و (الأعلام) 98/3. ونظير هذا ما فعله رضا تجدد أيضا بكنية خراش بن إسماعيل في ص 121، فقد اختار أبا وعرا، كما رأينا في البحث السابق تاركا ما ورد في الطبعة المصرية ص 163 ، وهو أبو رعشن، وكلاهما مشكل. انظر ما سبق في ص.57 حاشية رقم 212.

مصحفا تنوق فيه، فأقبل عمر يقلبه ويستحسنه، واستكثر ثمنه فرده عليه »[50]. وقال، وهو يصف بعض الوثائق القديمة التي وقف عليها عند بعض الشيعة: «ورأيت في جملتها مصحفا بخط خالد بن أبي الهياج صاحب علي رضي الله عنه»[51].

فهذا الرجل الخطاط إذاً كان من كتاب علي ــ رضي الله عنه ــ وشيعته، ثم صحب ملوك بني أمية وكتب لهم، وامتد به العمر إلى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز، أي بداية القرن الهجري الثاني؛ واختص بكتابة المصاحف وزخرفة المساجد والمحاريب والقصور بالآيات القرآنية، وهو ما كان الوليد مولعا به، ولا شك أنه كان يستعمل في ذلك القلم الجليل المبتكر في عصره، وهو أيضا مما كان الوليد يحب استعماله، فقد كان أول من أمر بالكتابة به في المكاتبات السلطانية[52]. وأيد ذلك كله البطليوسي في قوله: «وخط أهل الشام الجليل، يكتبون به المصاحف»[53].

ونحن نعلم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه اتخذ الكوفة عاصمة له، وقد نشطت كتابة المصاحف والعمل على إجادتها في عهده، وتعاطاها المسلمون وغيرهم؛ روى صاحب (كتاب المصاحف) عن أبي حكيمة العبدي قال: «كنت أكتب المصاحف بالكوفة، فيمر علينا علي رضي الله عنه، فيقوم فينظر، فيعجبه خطنا ويقول: هكذا نوروا ما نور الله»[54].

يتضح من كل ذلك أن الخط العربي انتقل من مكة إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين، وظل يستخدم فيها بشكله الساذج الأول الذي دخل به إلى مكة دون تغيير كبير. ويبدو من أصول بعض رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم التي وصلت إلينا[55] أنه كان مقورا مستديرا (ليِّنا)، فلما شاع استعماله وكثر، واحتيج إليه في جمع المصحف في مراحله المختلفة، تنوق فيه كتاب الصحابة

---

(50) الفهرست ص 15.

(51) الصدر السابق ص 67.

(52) الوزراء والكتاب ص 47.

(53) الاقتضاب ص 89.

(54) كتاب المصاحف ص 145، وانظر ص 146، 147 ، 194 منه.

(55) انظر صورها الفوتوغرافية في كتاب (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) للدكتور محمد حميد الله بواسطة فهرس الصور.

رغبة منهم في إضفاء القدسية والجلال على المصحف الكريم؛ وأدى بهم الحرص على التطوير والزخرفة إلى ابتكار الأصل الثاني للأقلام العربية، وهو القلم المبسوط المستقيم، أو المربع، أو (اليابس)، وهو المسمى فيما بعد بالقلم الجليل أو قلم الطومار كما أسلفنا، ولعله ما سمي كذلك إلا لارتباطه بالقرآن الكريم.

ثم سرعان ما انتقل هذا الخط بصورته هذه إلى الكوفة صحبة علي بن أبي طالب وشيعته، وهناك طال به المقام حتى اكتمل تكوينه بفضل الحركة العلمية الرائجة في هذه المدينة إلى جانب جارتها البصرة، فنسب إليها بشكله هذا المبسوط، ومنها انتقل إلى غيرها من الحواضر، واستنبطت منه الأقلام المختلفة في أواخر الدولة الأموية، وبقيت الاستدارة علامة على الخطين المدني والمكي معا؛ والظاهر أنه لم يكن بين صورتيهما فرق كبير، فابن النديم قرن بينهما في الوصف في قوله: «فأما المكي والمدني ففي ألفاته تعويج إلى يمنة اليد وأعلى الأصابع، وفي شكله انضجاع يسير»[56]، ولعل المدني لم يُميز إلا لأنه لم يُعرف من المتأخرين إلا عن طريق المدينة، في حين عرف المكي بالأسبقية والريادة عند العرب، وغطى عليها كلها الخط الكوفي بسبب شهرته وشيوعه.

ويظهر أن هذا الخط الجديد كان في بدايته خاصا بالقرآن الكريم الذي ابتكر لأجله، ثم امتد مع خالد بن أبي الهياج الذي كان يكتب « المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك »، وكان قبل ذلك من أصحاب علي، إلى دواوين الدولة، فكانت الكتابة فيها بهذا القلم الجليل أو قلم الطومار بصورة محدودة[57] إلى أواخر دولة بني أمية، حين ظهر كاتب آخر اشتهر بحسن الخط وجودته، فاستطاع

---

(56) الفهرست ص 14. وقد سبق إيراد النص كاملا في ص 120.

(57) قال البطليوسي: « وخط أهل الشام الجليل يكتبون به المصاحف والسجلات » الاقتضاب ص 89. و يؤكد الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص 47 أن أول من أمر بالكتابة به منه وإليه هو الوليد بن عبد الملك كما رأينا أعلاه، في حين يستظهر القلقشندي (صبح الأعشى) 54/3، أن بداية العمل به في دواوين بني أمية كان في زمن معاوية، وهما في ذلك لا يخالفان استنتاجنا ، بل يؤيدانه ما دام ابن أبي الهياج اشتهر كاتبا منذ عهد علي رضي الله عنه، ولكنهما معا لم يذكرا قصة ابن أبي الهياج التي أوردها ابن النديم، ولا ربطا بين تطور كتابة المصحف الشريف وتطور الكتابة في دواوين الدولة.

أن يطوره، وأن يستنبط منه أقلاما أربعة كانت الأصل لكل ما استنبط بعد ذلـــك من الأقلام.

قال ابن النديم: « أول من كتب في أيام بني أمية قطبة، وهو استخرج الأقلام الأربعة، واشتق بعضها من بعض، وكان قطبة أكتب الناس على الأرض بالعربية؛ ثم كان بعده الضحاك بن عجلان الكاتب في أول خلافة بني العباس، فزاد على قطبة، فكان بعده أكتب الخلق، ثم كان بعده إسحاق بن حماد الكاتب في خلافة المنـــصور والمهدي، فزاد على الضحاك، ثم كان لإسحاق بن حماد عدة تلامـــذة.. »[58]. ثم قال، بعد أن ذكر الأقلام المختلفة التي استخرجت في العصر العباسي على يد هؤلاء الكتاب من الأقلام الأربعة التي استنبطها قطبة:« ومخرج هذه الأربعة الأقلام من **القلم الجليل، وهو أبو الأقلام** »[59].

وهكذا كانت الكتابة الكوفية المبسوطة، التي كتبت بها مصاحف عثمان رضي الله عنه، أصلا للقلم الجليل الذي استعمله كتاب الدولة الأموية؛ ويظهر أن استعماله لم يتوسع إلا في أواخرها، حين استطاع قطبة أن يستخرج منه أنواعا أربعة أخـــرى من الخطوط، ولا شك أنه تأثر في ذلك بابن أبي الهياج أو أخذ عنه مباشـــرة[60]، ثم جاء بعده الضحاك في أول دولة بني العباس، فخلفه في الشهرة بجودة الخط وتطويره، ثم جاء بعده آخرون، فهم سلسلة متصلة من مشاهير الخطاطين منذ زمن علي رضي الله عنه.

ويبدو أن السابق منهم يعلم اللاحق وينقل إليه صناعته، ثم ينقلها هذا لمن جاء بعده، كما تؤخذ الصناعات والحرف من أربابها القائمين بها، وكما تؤخذ العلـــوم المختلفة عند القدماء بالسماع من الشيوخ والرواية عنهم. فقد قال ابن النديم، وهو

---

(58) الفهرست ص 16. وأشار القلقشندي إلى أن الضحاك بن عجلان وإسحاق بن حماد كانا من أهل الشام، وأنهما كانا يكتبان بالقلم الجليل. (صبح الأعشى) 16/3. وهو ما أكـــده البطليوســـي في الاقتضاب ص 88.

(59) الفهرست ص 18.

(60) رأينا سابقا أن ابن أبي الهياج عاش إلى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز، أي إلى السنوات الأخـــيرة من عمر الدولة الأموية. انظر **ما سبق** في ص 124.

بصدد الحديث عن الأقلام المختلفة، ومنها القلم الجليل: «وهو أبو الأقلام كلـــها لا يقوى عليه أحد إلا بالتعليم الشديد»[61]، وأشار القلقشندي إلى أن المتـــأخر مـــن الكتاب يأخذ من السابق ويتعلم منه[62].

فقد كان ابن أبي الهياج إذاً، كاتبُ المصاحف، أستاذَ الخطاطين، وكان القلم الجليل الذي كتبت به مصاحف عثمان أصلا لكل خط جاء بعده.

ويؤيد جلالة هذا القلم في نفوس الكتاب والعلماء والوراقين، وأنـــه مبتكـــر لخدمة القرآن ومرتبط به، وأنه أبو الأقلام حقا بسبب ذلك، أن مقـــاييس مـــساحة عرض سائر الأقلام وأسماءها مستنبطة من مساحة عرضه؛ قال القلقشندي: « إن هذه الأقلام منسوبة من نسبة قلم الطومار في المساحة؛ وذلك أن قلم الطومار، الذي هو أجل الأقلام، مساحةُ عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون...؛ وقلم الثلث منه بمقدار ثلثه، وهو ثمان شعرات، وقلم النصف بمقدار نصفه، وهو اثنتـــا عـــشرة شعرة؛ وقلم الثلثين بمقدار ثلثيه، وهو ثمان عشرة شعرة»[63].

ولا يعني هذا الاستنتاج أن الخط الدائري المقور أو اللين أصبح مهجورا بعـــد ظهور الخط الجديد المبسوط، فقد استمر العمل به عند كثير من الناس، وخاصـــة في غير شؤون الدولة، وعند العامة في كتابة المصاحف وغيرها، ولكنه أخذ في التقلص والانزواء شيئا فشيئا، تاركا المجال للخط الكوفي الجديد؛ ولم تأت نهاية الدولة الأموية حتى كانت نهاية العمل به، بعد أن توسع العمل بالخط الكوفي، وتفرعت عنه فروع أغنت عنه وغطت على ما فيه من محاسن؛ ووافق ذلك شـــيوع علامـــات الـــنقط والشكل واستقرارها والعمل بها كما سنرى؛ فاختصت المصاحف برسم الخط القديم كوفيه ومدنيه، وشاع العمل بالفروع الجديدة في المجالات المختلفة، ولعلها كلها أو بعضها هي التي سماها ابن النديم بالخط العراقي[64].

---

(61) الفهرست ص 17.

(62) صبح الأعشى 16/3-17. وانظر (تاريخ ابن خلدون) المقدمة ص 348 فما بعدها (فـــصل في أن الكتابة والخط من الصنائع الإنسانية).

(63) صبح الأعشى 53/3، وانظر (الفهرست) ص 17-18، والبراذين من الخيل: ما أنتجه غير العرب.

(64) الفهرست ص 124.

أما الخط البصري الذي نص عليه ابن النديم في كلامه السابق[65] فلم يرد لـــه ذكر في ما اطلعت عليه من المصادر، سوى أن ابن النديم نفسه كرر ذكـــره عنـــد عرضه لأنواع خطوط المصاحف المشهورة[66]، ولعله لم يكن يختلف عن الخط المدني أو هو نفسه المدني قبل أن يتطور إلى الخط الكوفي، وإنما خصه ابن النديم بالذكر لأنه شاع في البصرة في الوقت نفسه الذي تطور فيه الخط الكوفي وتميز عنه، فكتب بـــه الكثير من الآثار التي وقف عليها ابن النديم فيما بعد بخطوط علماء البصرة وكتابهـــا فنسبه إليها[67]؛ وإلا فالخط الكوفي بفروعه المختلفة هو الأكثـــر ذكـــرا وشـــيوعا واستعمالا، وتجاوز الناس كل خط غيره في مستهل القرن الثاني الذي حدده العلماء تاريخا لهذا التحول الأساسي في الخط العربي[68].

ولو التمسنا قولا جامعا لتطورات الخط العربي في مراحـــل تكوينـــه الأولى، وصلته القوية بكتابة المصاحف، وأثرها في تطويره، لوجدناه في قول ابـــن الـــسيد البطليوسي: « ولأهل الحيرة خط الجزم، وهو خط المصاحف، فتعلمه منهم أهل الكوفة، وخط أهل الشام الجليل يكتبون به المصاحف والسجلات»[69].

فقد ولد خط الجزم بالحيرة، فتعلمته منها قريش وغيرها، وكتبوا به المصاحف، وولدوا منه خطوطا أخرى أهمها القلم الجليل الذي اقترن وجوده بكتابة المصاحف، وشاع واشتهر في الكوفة بعد تأسيسها وعمارتها، وعنها أخذه أهل الشام وكتبوا به المصاحف وغيرها من مكاتبات الدولة، فتوسع العمل به حتى صار أصلا ثانيا لكل ما جاء بعده من الخطوط.

---

(65) انظر ص 120.

(66) الفهرست ص 15.

(67) انظر في (الفهرست) ص 67، ما ذكره عن وقوفه على خطوط بعض علماء البـــصرة والكوفـــة، وخطوط بعض كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب والحسن والحسين رضـــي الله عنهم، فهو متخصص في قراءة الخطوط القديمة.

(68) شيوع الخط الكوفي وقلة تداول البصري يصحح ما استظهرناه في البحث السابق من توفر الآثـــار المكتوبة وكثرتها في الكوفة لا في البصرة. انظر ما سبق في ص 25.

(69) الاقتضاب ص 89-90.

ويؤكد هذه الحقائق كلها أو جلها الباحثون المعاصرون من خلال دراستهم لأصول بعض الرسائل والوثائق التي وصلت إلينا، ولبعض النقوش التي عُثر عليها وتنتسب إلى القرن الهجري الأول. فقد دلت أصول رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم التي وصلت إلينا على أنها كتبت بالخط المكي الذي لا يزال يعاني من ضروب النقص والغموض، و لم يظهر تحسنه وتطوره الأول نحو الخط الكوفي إلا من خلال بعض صفحات القرآن المكتوبة في عهد الخلفاء الراشدين[70].

ودلت بعض أوراق البردي المؤرخة بسنة اثنتين وعشرين من الهجرة « على أن الخط العربي اللَّيِّن كان قائما من قبل ذلك التاريخ بجانب ذلك النوع الآخر الذي عرف باسم الخط المبسوط المعبر عنه باليابس»[71]، وعلى أن هذا الخط المقور « كان هو وحده السابق للخط الآخر اليابس الذي عرف بعد ذلك باسم الخط الكوفي»[72]. وكشفت بردية أخرى ترجع إلى عهد الوليد بن عبد الملك، عن أن الخط العربي خرج عند بعض الكتاب عن شكله الإتباعي، وأخذ في نوع من التناسق والانتظام[73].

أما النقوش فقد اكتشف الدكتور محمد حميد الله كتابات منقوشة على صخور جبل سلع القريب من المدينة المنورة، وقدر أن تاريخها يرجع إلى زمن غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة[74]؛ ويعتبرها الباحثون أقدم النماذج الأثرية الإسلامية. وبالرغم من بدائية الخط الذي كتبت به وتناثره في غير انتظام، فقد تبين من صور حروفه أنها «تتشابه شكلا مع الكتابة التي نجدها بعد ذلك بعدة سنوات على أوراق البردي

---

(70) انظر نماذج من صورها في مجلة (آفاق أدبية) عدد 6 شباط 1979 في مقال بعنوان (الخط العربي والإسلام) بقلم محمود شكر محمود ص 94-97. وانظر أيضا مجلة (المورد) مجلد 16 عدد 1 سنة 1987 في مقال بعنوان (السفارات والرسائل النبوية) ص 29–50. بقلم محمود شيت خطاب.

(71) (أربعة نماذج مبكرة من الخط الإسلامي الأثري) بقلم محمود حلمي . مجلة (عالم الفكر) عدد 1 أبريل- مايو - يونيو 88 مجلد 19 ص 207- 208.

(72) المرجع السابق ص 207–208.

(73) المرجع نفسه ص 207–208.

(74) مجموعة الوثائق السياسية العائدة للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص 32.

العربية»[75]؛ فهي بذلك «معالم على الطريق تقربنا موضوعيا وتاريخيا من الصورة الأولية للحروف العربية التي كانت سائدة آنذاك»[76].

ويوجد نقش آخر يعود تاريخه إلى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة، اكتشف في مدينة أسوان في مصر، وهو شاهد قبر رجل يدعى عبد الرحمان بن خير، وتدل صور حروفه على أنها ليست من الخط اللين ولا من الخط اليابس، وإنما يمكن اعتبارها «من الخط الكوفي البدائي»[77].

واكتشف نقش آخر بالقرب من مدينة الطائف بالحجاز، وهو عبارة عن لوحة تذكارية، وضعت على السد الذي بناه معاوية بن أبي سفيان، ومؤرخة بسنة ثمانية وخمسين من الهجرة[78]؛ وتبدو صور حروفه أكثر استقامة وتناسقا وانتظاما، وأنها من الخط الكوفي الأول، ويوجد فيها النقط على أكثر من حرف.

ومع ذلك فقد استخلص بعض الباحثين من دراسة أصول هذه الوثائق والآثار المنقوشة التي تعود إلى القرن الهجري الأول: «أن الحروف العربية إبان هذه الفترة، لم تتغير ولم تتبدل شكلا ولا نسقا، بل ظلت طوال القرن الهجري الأول على ما هي عليه»[79].

وهذه نتيجة مبالغ فيها لا تؤيدها أقوال العلماء والمؤرخين التي تتبعنا من خلالها تطور الخط العربي إلى العصر العباسي، ولا أوصاف الحروف وصورها التي احتفظت بها الوثائق والنقوش التي وصلت إلينا، فهي تبين سير الخط العربي نحو التناسق والانتظام والوضوح، وإن لم يبلغ مرحلة النضج والاكتمال؛ ولكنها مع ذلك نتيجة تؤيد الرأي السابق الذي انتهينا إليه، وهو أن التطور الحاسم، الذي يفصل بين

---

(75) أربعة نماذج مبكرة من الخط الإسلامي الأثري، بقلم محمود حلمي... ص 193.

(76) المرجع السابق ص 198.

(77) المرجع نفسه ص 212، وانظر (فقه اللغة) للدكتور علي عبد الواحد وافي ص 256، و(دراسات في التراث العربي) ص 83.

(78) نفسه ص 214.

(79) نفسه ص 215.

مرحلتين متميزتين من مراحل تطور الخط العربي، تم في أواخر الدولة الأموية أو بداية القرن الهجري الثاني.

وفي ذلك برهان واضح على أن النصوص المكتوبة في العصر الجاهلي ومعظم القرن الهجري الأول، وكانت نادرة الاستعمال والتداول، يصعب على عامة المتأدبين قراءتها وفهمها، فأحرى جمعها وتدوينها والاستشهاد بها؛ ولا نستثني من ذلك سوى نص القرآن الذي استثناه المؤرخون، وكانت قراءته تستوجب تعلم رسمه وكتابته. هذا في الأعم الأغلب عند أكثرية الرواة وطلاب الأدب، لا عند المتخصصين من القراء والوراقين وكتاب الدواوين، وهم الذين يرجع إليهم الفضل في رواية البقية الباقية من النصوص النثرية الجاهلية والإسلامية الأولى وفي تدوينها.

ب _ خلو حروف الكتابة الأولى من النقط والشكل لتمييز الحروف المشتبهة بعضها من بعض:

الوجه الثاني من وجوه النقص التي عالجها كتاب المصاحف في الخط العربي، وكان ناشئا عن عدم نضجه واكتماله، خلو الحروف العربية في مراحلها الأولى من النقط والشكل، وهو ما نشأ عنه الخلط بين المتشابهات منها عند نقلها من الأصول المكتوبة وحدها دون مساعدة السماع، وحال في نظرنا بين الرواة والعلماء وبين الاعتماد على النصوص النثرية المكتوبة قبل القرن الثاني والاستفادة منها كما قلنا(80).

فقد كانت أشكال بعض الحروف وصورها واحدة لا اختلاف بينها، ولا سبيل إلى التمييز بينها إلا بإضافة علامات أخرى تدل على أصواتها وصورها السمعية عند النطق بها، أو عند نقلها من صحيفة إلى أخرى، وذلك كحروف الباء والتاء والثاء والحاء والخاء والجيم وغيرها(81)، وهو ما أدى إلى وضع ما سموه بنقط الإعجام.

وكانت الكتابة العربية خالية أيضا من الحركات الإعرابية المبينة لاتجاه الصوت عند النطق بالكلمة، وهو ما أدى إلى وضع ما سموه بالشكل أو نقط الإعراب أو نقط الحركات(82).

---

(80) انظر ما سبق في ص 118-119.

(81) انظر تفصيل ذلك في (المحكم في نقط المصاحف) ص 36-37، و(صبح الأعشى) 148/3.

(82) انظر (الفهرست) ص 66، و(المحكم ..) ص 4، 26-27 من مقدمة المحقق.

وكان الإقبال على تعلم القرآن والكتابة في العهد النبـــوي والراشـــدي، وعلـــى استنساخ المصاحف وتناقلها السبب الأول في الكشف عـــن هـــذه العيـــوب ومحاولـــة إصلاحها، ولذلك لا نجد الحديث عنها إلا عند العلماء المؤرخين للقرآن وقراءاته ورسمه.

ويبدو أن نقط الإعجام أسبق في الظهور من الشكل، وأن تـــأثير غيابـــه في تحريف أداء ألفاظ القرآن عن وجهها الصحيح الذي سُمعت به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخف وأقل من تأثير غياب الشكل عنها، لأن ذاك يؤدي إلى وضـــع لفظة مكان أخرى لعلها لا تختلف كثيرا عن المعنى المقصود، وهذا يؤدي إلى اللحن الفاحش وتحريف المعاني[83].

فقد وردت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنه أن الإعجام وُجد مع الحروف العربية عند وضعها الأول، فلم تعرف المتشابهات منها إلا منقوطة[84]، وإلى ذلك يميل القلقشندي، فهو يستبعد أن تكون الحروف «مع تشابه صورها عرية عن النقط إلى حين نقط المصحف»[85].

غير أن النقوش الجاهلية وأصول رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم الـــتي وصلت إلينا تنفي ذلك، فهي كلها لا نقط فيها[86]؛ ولا نعثر عليـــه بعـــدها إلا في

---

(83) مثال الأول ما روي أن حمادا الراوية صحَّف « ثلاثة ألفاظ من القرآن لو قُرئ بها لكان صـــوابا، وذلك أنه حفظ القرآن من مصحف، ولم يقرأه على أحد: اللفظ الأول: وما كان استغفار إبـــراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه، يريد : إياه .. » (المزهر 368/2) ، والآية مـــن (ســـورة التوبـــة 115/9،). ومثال الثاني ما روي أنه كان السبب المباشر الذي حمل أبا الأسود الدؤلي على وضع نقط الحركات، وهو أنه سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: أن الله بريء من المشركين ورسولِه (التوبة 3/9) بالجر، فاستعظم ذلك، فنقط المصحف نقطه المنسوب إليه. انظر (الفهرست) ص 66 ، و(المحكم) ص 3-4، و(شرح ما يقع فيه التصحيف) ص 15.

(84) الفهرست ص 13.

(85) صبح الأعشى 149/3. وقد اجتهد الدكتور ناصر الدين الأسد في أن يثبت أن النقط كان معروفـــا في العصر الجاهلي، وساق على ذلك أدلة ونصوصا لا تقوى على النهوض بفكرته وإثبات صـــحتها. (مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية) ص 34-41.

(86) انظر صورها الفوتوغرافية في (مجموعة الوثائق السياسية ...) للدكتور محمد حميـــد الله بواســـطة فهرس الصور.

بعض الرسائل التي تعود إلى زمن الخلفاء الراشدين، وفي ما وصل إلينا مـــن أجـــزاء المصاحف التي كتبت في عهدهم[87].

وذلك ما تؤكده رواية صاحب (المحكم في نقط المصاحف) عن الأوزاعـــي الذي روى عن أحد أشياخه قوله: «كان القرآن مجردا في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والثاء، وقالوا لا بأس به، هو نور له»[88]؛ وروى عن قتادة قوله: « بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا ثم عشروا»[89]؛ ثم استظهر صاحب المحكم أن الـــصحابة وأكابر التابعين أول من باشر ذلك.

وقد اعتمد الدكتور محمد حميد الله على هذه الروايات وعلى غيرها، فأثبت أن نقط الإعجام كان موجودا قبل نحاة البصرة[90] الذين اشتهروا بين علماء العربية بوضـــعه[91]، وهم أبو الأسود الدؤلي[92]، ويحيى ابن يعمر[93]، ونصر بن عاصم[94].

وهنا يخلط المؤرخون بين نقط الإعجام ونقط الحركات من خلال عمل هؤلاء العلماء، فلا يكاد يتميز في أقوالهم صاحب هذا من ذاك[95]؛ ولكن الظاهر من الرواية

---

(87) انظر نماذج من صورها في مجلة (آفاق عربية) عدد 6 سنة 79 ص 94-95.

(88) المحكم ص 2.

(89) المصدر نفسه ص 2.

(90) الكتابة في عهد الرسول والصحابة لمحمد حميد الله ، مجلة (فكر وفن) عدد 3 سنة 2، ألمانيا الغربية 1964 ص 26 فما بعدها.

(91) انظر (المحكم ..) ص 3-6.

(92) أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان، كان من سادات التابعين وأعيانهم، صحب علـــي بـــن أبي طالب وانتصر له، وأخذ عنه أصول النحو، سكن البصرة، وتوفي سنة 69هـــ، وأخبـــاره كثيـــرة. انظر (الفهرست) ص 65-68 ، و (نزهة الألباء) ص 6-11، و (مراتب النحـــويين) ص 24-29، و(وفيات الأعيان) 535/2.

(93) أبو سليمان يحيى بن يعمر العدواني البصري، تابعي روى عن عدد من الصحابة، وكان أحد القراء، عالما بالقرآن والنحو ولغات العرب، وأخذ النحو عن أبي الأسود، وكان من أوائل الكتاب البلغـــاء. توفي سنة 129هـ. (نزهة الألباء) ص 16-17، و (مراتب النحويين) ص 50-51، و(وفيات الأعيان) 173/6-176.

(94) نصر بن عاصم الليثي، كان فقيها عالما بالعربية فصيحا، قرأ القرآن والنحو على أبي الأسود، وهـــو أحد مشاهير القراء. توفي سنة 89 هـ .(نزهة الألباء) ص 14، و (بغية الوعاة) 313/1-314، و(معرفة القراء الكبار) 58/1.

(95) انظر (كتاب المصاحف) ص 158، و (المقنع في مرسوم مصاحف أهـــل الأمـــصار) ص 125، و(المحكم ..) ص 3-6 و (صبح الأعشى) 154/3-153.

المفصلة لعمل أبي الأسود الدؤلي أنه مبتكر نقط حركات الإعراب، وأن نصر بن عاصم اهتم بنقط الإعجام وبتطويره، فنسب إليه:

قال أبو أحمد العسكري: « وقد روي أن السبب في نقط المصاحف أن الناس غبروا يقرؤون في مصاحف عثمان رحمة الله عليه نيفا وأربعين سنة، إلى أيام عبد الملك بن مروان، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك، فوضع النقط أفرادا وأزواجا، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف، وبعضها تحت الحروف »[96].

فهذه الرواية صريحة في بيان الإضافات التي أضافها نصر بن عاصم، وهي المخالفة بين الحروف في عدد النقط التي توضع عليها، وفي أماكنها فوق الحروف أو تحتها. ومع ذلك يبدو أن الخليل بن أحمد هو الذي بلغ بنقط الإعجام صورته النهائية التي وصلت بها إلينا[97].

أما الشكل أو نقط الحركات[98] فقد اشتهرت نسبة ابتكاره ووضعه الأول إلى أبي الأسود الدؤلي؛ ولكن الظاهر مما أثبته غير واحد من الباحثين، من تأثره في ذلك بالنحو السرياني أو العبراني[99]، أنه كان معروفا عند الصحابة في المدينة المنورة، التي كانت فيها وفي مكة الآثار السريانية والعبرية، متمثلة في كتب النصارى واليهود؛ وكان بعض كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقن هاتين اللغتين ويترجم منهما[100]، ولكن الحاجة لم تكن ماسة إلى هذا النوع من النقط في بيئة الصحابة الذين تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حفظا في الصدور،

---

[96] شرح ما يقع فيه التصحيف ص 14، وانظر (وفيات الأعيان) 32/2.

[97] انظر (المحكم ..) ص 34.

[98] سمي نقطا لأنه كان دائريا وشبيها بنقط الإعجام الذي هو نقط بالسواد. (المحكم) ص 22

[99] انظر (المحكم ..) ص 28-29 من مقدمة المحقق ، وانظر (أوليات الدراسة اللسانية عند العرب: النقط) لعبد العزيز برهام (مجلة بحوث كلية اللغة العربية) لجامعة أم القرى ص 322 فما بعدها، عدد 2 / 1405هـ .

[100] انظر (الطبقات الكبرى) 359/2 ، و (كتاب تأويل مختلف الحديث) ص 193 ، و (فتوح البلدان) ص 459.

فلم يكن شائعا بينهم، وكان العمل به محدودا في زمنهم؛ فلما اختلط العرب بغيرهم، وخاصة في البصرة والكوفة، ظهر اللحن في قراءة القرآن، فأمر زياد بن أبيه أبا الأسود الدؤلي بتعميم نظام الحركات على المصحف الكريم، ففعل، « وابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره »[101].

إلا أنه كان مع ذلك نظاما غير مكتمل، إذ اقتصر فيه أبو الأسود على حركات الإعراب والتنوين، فأضاف الخليل بن أحمد من بعده علامات الهمز والتشديد والروم والإشمام[102]، ثم ابتدع أشكالا أخرى مخالفة لنقط أبي الأسود، اقتبسها من صور الحروف، « فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف، لئلا تلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة »[103]؛ ووضع علامات التشديد والتخفيف وغيرها[104]، وهو المسمى بشكل الشعر[105]، والمستعمل عند علماء العربية في ضبط ألفاظ اللغة ونصوصها منذ عهد الخليل.

ثم شاع هذا النوع وانتشر حتى هُجر رسم المصحف بأشكال حروفه ونقطه في الكتابات العامة والخاصة، فصار خاصا بالمصحف، ونهى العلماء عن استعمال غيره فيه؛ فقد « سئل مالك رحمه الله: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال: لا إلا على الكتبة الأولى »[106]، ولم يخالفه أحد من العلماء، ولكنه أجاز استعمال النقط الجديد في ألواح التعليم والمصاحف الصغيرة التي يتعلم فيها

---

[101] المحكم ص 4، وانظر (نزهة الألباء) ص 9.

[102] المصدر السابق ص 6 ، وانظر (صبح الأعشى) 155/3.

[103] المصدر نفسه ص 7 . وروى السيوطي في (الإتقان 168/2) عن الكرماني ما يؤكد أن هذه العلامات قديمة لم يبتكرها الخليل. قال: « قال الكرماني في العجائب: كانت صورة الفتحة في الخطوط قبل الخط العربي ألفا، وصورة الضمة واوا ، وصورة الكسرة ياء، فكتبت (لا أوضعوا) ونحوه بالألف مكان الفتحة، و(إيتاى ذي القربى) بالياء مكان الكسرة، و(أولئك) ونحوه بالواو مكان الضمة، لقرب عهدهم بالخط الأول »، وهو نص عجيب أهمله القدماء من أصحاب التأويل البعيد للزوائد في القرآن وغيره، وأهمله أيضا فيما نعلم علماء النقوش المعاصرون

[104] المحكم ص 7.

[105] المصدر السابق ص 7 .

[106] المقنع في مرسوم مصاحف أهل الأمصار ص 9 ، وانظر (المحكم) ص 17، و(كتاب الكتّاب) لابن درستويه ص 16.

الصبيان، وهو ما اتسع وشاع حتى هجر نقط أبي الأسود، وأهمله الناس، ولم يمض إلا زمن يسير حتى صار من الصعوبة بمكان استعمال المصاحف المنقوطة على طريقته. قال ابن مجاهد: « وفي النقط علم كثير واختلاف بين أهله، ولا يقدر أحد على القراءة في مصحف منقوط إذا لم يكن عنده علم بالنقط، بل لا ينتفع به إن لم يعلمه»[107].

هذا ما يقرره عالم القراءات الكبير ابن مجاهد[108] في شأن المصاحف، التي هي أكثر استعمالا وتداولا بين الناس، وهم على الاحتفاظ بها وتملكها أحرص، وبتصحيح روايتها وضبطها أقوم وأشد عناية؛ فما ظنك بالنصوص النثرية المكتوبة المضبوطة على طريقة أبي الأسود، أو غير المضبوطة أصلا؛ وأكثر نصوص العصرين الجاهلي والإسلامي لا نقط فيها ولا إعجام؟ فلاشك أن الرواة المبتدئين ممن غلبت عليهم الرواية الشفوية، ولم تكن لهم خبرة كبيرة بالعربية القديمة ونصوصها المكتوبة، سيجدون عسرا أي عسر في الأخذ عن الصحف المكتوبة والاقتباس منها والاعتماد عليها دون تصحيف أو تحريف؛ وخاصة أن أكثرية الرواة نشؤوا على شكل الشعر الذي ابتدعه الخليل في وسط اللغويين لحاجتهم إليه في صناعتهم.

وكل أولائك جعل طائفة عريضة من العلماء يتخذون موقفا صارما من الرواية عن الصحف، وهو الطعن فيها وعدم اعتبارها طريقة من طرق الرواية الصحيحة المعتمدة، وإلصاق تهمة التصحيف بكل من تعاطاها من الرواة، مع العناية بكشف مزالقهم وأخطائهم.

ج ـ خلو حروف الكتابة الأولى من صور أصوات المد التي ينطبق فيها الصوت المنطوق على الحرف المكتوب:

الوجه الثالث من وجوه النقص التي أسهم كتاب المصاحف في معالجتها في الخط العربي: خلوه من حروف المد واللين في العصر الجاهلي ومعظم القرن الهجري

---

(107) المحكم ص 24.

(108) أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، انتهت إليه الرئاسة ببغداد في عصره في القراءات، وكان مع علمه وديانته وحفظه حسن الأدب، كثير المداعبة، ازدحم عليه القراء . قال فيه ابن النديم: « كان واحد عصره غير مدافع » (الفهرست) ص 53، و (معرفة القراء الكبار) ص 216-218.

الأول، وكان ناشئا عن عدم نضج الكتابة الخطية، وهو من الموانع التي حالت كسابقتها _ فيما نرى _ بين أصناف من رواة اللغة والأدب في القرن الثاني الهجري وبين رواية النصوص النثرية المكتوبة. ولا تخفى أهمية هذه الحروف في مطابقة الصوت المنطوق به للحرف المكتوب. وعدم وجودها يحدث انفصاما واضحا بينهما.

فقد دلت نقوش العصر الجاهلي، التي تمثل المرحلة المتأخرة من تطور الخط العربي التي اشتقت منها حروف الخط المكي، على أن هذا الخط كان خاليا من الرمز إلى أصوات المد[109]، وهو ناتج أصلا عن استنباطه من المسند الحميري وغيره من الخطوط القديمة كما سبق القول[110].

وإلى جانب ذلك أشارت نصوص صريحة إلى أن مسند حمير كان خاليا من حروف المد، وأن كتاب المصاحف تأثروا به في ذلك. فقد روى صاحب (الإكليل) نصا مكتوبا بالمسند كان خاليا منها، ثم عقب عليه بقوله: «كذلك يكتبون، بحذف الألف إذا وقعت في وسط الحروف، وقفاهم المسلمون في كتابة المصاحف، فطرحوا ألف الرحمن، وألف الإنسن، وألف السموات ... فأما اللفظ فعلى التمام ... وكذلك يحذفون الواو الساكنة في وسط الحروف، مثل مبعوث، والياء الساكنة مثل شمليل، والألف الساكنة في مثل هلال وبلال وأميال»[111].

فتأثير المسند هنا عام في خط الجزم وسائر ما كتب به آنذاك، وإنما خص المؤلف القرآن بالذكر لأنه الأثر الكبير الباقي شاهدا على ذلك التأثير، وهو الذي تناولته أقلام الكتاب بكثرة في تلك الفترة.

إلا أنه سرعان ما ظهرت هذه الحروف في الخط العربي عند ظهور الإسلام بصورة غير منتظمة، كما يظهر من أصول رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم التي وصلت إلينا. ويبدو أن تعميمها عند الكتاب في كل ما يكتبونه من القرآن والحديث والرسائل وغيرها احتاج إلى وقت وتجربة طويلين حتى ينتبه الناس إلى ضرورتها؛ وكانت كتابة المصاحف مرة أخرى هي المجال العملي الذي اكتشفت فيه هذه الضرورة.

---

(109) انظر (فقه اللغة) لعلي عبد الواحد وافي ص 252–253

(110) انظر ما سبق في ص 114–115.

(111) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير للهمداني ص 16 ، وانظر قول الكرماني السابق في ص 35 حاشية رقم 103.

فقد روي أن عثمان رضي الله عنه قال لكتاب المصحف الإمام عندما عرضوه عليه: «قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئا من لحن ستقيمه العرب بألسنتها»[112]، وقال: «لوكان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا»[113]، وأمرهم بتركه على ما هو عليه دون تصحيح أو تغيير، اعتمادا على سليقة العرب في تقويمه وإعرابه؛ وروي مثل ذلك عن عائشة رضي الله عنها، ونسبت فيه الخطأ واللحن إلى الكُتاب[114].

ولم يكن عثمان وعائشة رضي الله عنهما يقصدان اللحن والخطأ بمعناهما الاصطلاحي الذي استقر عليه عند علماء اللغة والنحو، وإنما يقصدان اضطراب حروف المد في كتابة القرآن في حالتي زيادتها وحذفها، وعدم انتظامها على نمط واحد عند كافة الكتاب، بسبب تباين مستوياتهم في الخبرة باستعمال الحروف بحسب أوضاعها المختلفة في الكلمات، واختلاف أحوالهم عند الإملاء، وهو ما نتج عنه عدم مطابقة الصوت المنطوق به للحرف المكتوب. ولما كان القرآن محفوظا في الصدور، ومعتمدا عند نقله على السماع أولا، وكانت البيئة اللغوية في عهد عثمان عربية خالصة، لم يخش على القرآن من التحريف الذي يحيل الألفاظ والمعاني عن أصولها الصحيحة المقصودة، وهو ما حدث بعد ذلك عند اختلاط الألسنة، واستوجب وضع الإعجام والشكل كما سبق أن بينا، ولذلك أمر عثمان رضي الله عنه بعدم تغيير ما لاحظه مما سماه اللحن في القرآن وتركه على ما هو عليه.

قال الباقلاني: «وقد ثبت أن خطوط المصاحف متغايرة مختلفة، وأن الناس أجازوا ذلك أجمع، وأجازوا أن يكتب كل واحد بما هو عادته وأشهر عنده»[115]. وقال: «والذي يعتمد عليه في قول عثمان رضي الله عنه: أن القصد به ما فيه من حذف الكاتب واختصاره في مواضع، وزيادته في مواضع، وأن الكاتب لو كتبه على

---

(112) كتاب المصاحف ص 41.

(113) المصدر السابق ص 42، وانظر (نكت الانتصار لنقل القرآن) للباقلاني ص127 فما بعدها، و(المقنع) للداني ص 117.

(114) كتاب المصاحف ص 43، وانظر (نكت الانتصار..) ص 127، و(المقنع) ص 118.

(115) نكت الانتصار .. ص 129، وانظر (تاريخ ابن خلدون _ المقدمة) ص 350.

صورة اللفظ ومخرجه لكان أولى وأنفى للشبهة، مثل كتبهم الصلوة والزكوة بالواو، وكان الأولى أن تكتب على اللفظ مثل إبراهيم وإسماعيل وما أشبه ذلك، مما حذف فيه الألف وهو ثابت في اللفظ»[116]. فهذا التوجيه ينصرف كما نرى إلى حروف المد دون غيرها.

ومما يؤكد اضطراب هذه الحروف في عهد عثمان، وعدم اتساقها على نحو واحد، قوله الذي علق به على ملاحظته: «لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا» [117]. فقد ربط هنا بين السبب ونتيجته، وجعل هذا علة لذلك الخلل، وهي علة معقولة، وخاصة إذا تذكرنا أن أهل مكة والطائف كانوا أسبق من غيرهم إلى تعلم الخط العربي، وكانت تجربتهم في الكتابة به أطول وأقدم[118]، فهم أجدر الناس بكتابة المصاحف وأقدر على القيام بها؛ ولذلك أوَّل الباقلاني الخبر السابق بقوله: «إن ثقيفا كانت أبصر بالهجاء، ولأن هذيلا تظهر الهمز في ألفاظها، والهمزة إذا ظهرت في لفظ المملي كتبها الكاتب على مخرج اللفظ، ولذلك قال عثمان رضي الله عنه: لا يملينَّ مصاحفنا ولا يكتبها إلا غلمان قريش»[119].

هذه كلها دلائل قوية على النقصان الذي لا يزال الخط العربي يعاني منه في كتابة حروف المد عند كتابة المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه وسائر الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة، وهو نقص لاشك أنه كان أبرز وأقوى في كتابة غير القرآن من الرسائل والعهود وغيرها، واستمر وجوده فيها زمنا غير يسير، توالت الإصلاحات خلاله، إلى أن اتخذ الخط العربي صورته النهائية في القرن الهجري الثاني، واستقل القرآن برسمه الخاص به.

---

(116) المصدر السابق ص 128 وانظر (المقنع) ص 117.

(117) كتاب المصاحف ص 42.

(118) انظر (تاريخ ابن خلدون_ المقدمة) ص 349 ، وما سبق في ص 112.

(119) وهذه العبارة الأخيرة نسبت أيضا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصورة أخرى ضم فيها ثقيفا إلى قريش فقال: « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف » (كتاب المصاحف) ص 17. ومعلوم أن الطائف كانت موطن ثقيف.

ولعل أبرز إصلاح وقع في هذا المجال، وكان له أثر قوي في رسم القرآن، هو ذاك الذي تم أثناء ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة[120]، فقد ورد « أن عبيد الله ابن زياد زاد في المصحف ألفي حرف »[121]، وكان الذي زاد « كان مكانه في المصحف قالوا: قاف، لام . وكانوا: كاف، نون، واو، فجعلها عبيد الله قالوا: قاف، ألف، لام، واو، ألف، وجعل كانوا: كاف، ألف، نون، واو، ألف »[122].

فهذه زيادة تتعلق بإدخال حروف المد في بعض الكلمات التي كانت خالية منها؛ ولا ندري مدى تعميم هذا الإصلاح على المصحف الكريم، ولا مدى شموله للمصاحف في كافة الأمصار الإسلامية، ولكن الظاهر أنه كان ذا أثر قوي فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فقد صارت الكلمات الخالية من حروف المد على ما استقر عليه المصحف بعد ذلك معدودة محدودة، تتبعها العلماء والقراء بالإحصاء والتفسير والتأويل، وتناولوا معها أمثالها من الحروف الزوائد الباقية في رسم المصحف ولا ينطق بها، وظلت موطن الخلاف والجدال بينهم إلى اليوم، وانقسموا بشأنها إلى فريقين:

التوقيفيون: أي أن الرسم القرآني توقيفي من الرسول عليه السلام وصحابته، وأن له أسراره وحكمه؛ وقد أبدع ابن البناء المراكشي (ـ 721هـ) في تعليلها والكشف عنها[123]؛ وغرضهم من ذلك تنزيه الصحابة عن النقص، والوقوف عند حدود ما قرره الرسول عليه السلام وأجازه.

والاصطلاحيون: القائلون بالاصطلاح والضرورة والمستوى التعليمي والحضاري للأمة آنذاك، وأن ما وقع في المصحف من مخالفة الخط العربي فيما صار

---

(120) كانت ولايته عليها من سنة 55-65 هـ . انظر (تاريخ الطبري) 299/5، 504 فما بعدها.

(121) كتاب المصاحف ص 129.

(122) المصدر السابق ص 129.

(123) في كتابه (عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل)، فقد تتبع هذه الحروف وربط بينها وبين معاني الآيات التي وردت فيها، مبرزا الحكمة منها في حالتي الزيادة والنقصان، وكذلك فعل الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) 380/1-408 ناقلا عن ابن البناء مجمل تأويلاته.

إليه هذا الخط بعد كتابة المصحف، إنما هو ناتج عن قلة الخبرة وغلبة البداوة على الجيل العربي المعاصر لجمع القرآن وكتابته، وأن العلماء من التابعين ومن بعدهم حافظوا عليه تبركا وتيمنا بخطوط الصحابة الكرام. وفي طليعة هؤلاء ابن خلدون الذي أفاض في شرح المسألة في مقدمته[124]، ونعت التوقيفيين بالغفلة، وسمى عملهم تحكما محضا، ونسب الحذف والزيادة في حروف المصحف إلى عدم نضج كتابة الصحابة المدونين للقرآن.

ويبدو أن الخلاف بين العلماء والباحثين في هذه المسألة شبيه بالخلاف بينهم في أصل اللغة البشرية ومنبع الخط الأول: هل هما توقيفيان أم اصطلاحيان؟ وقد أثبت البحث الحديث خطأ التوقيفيين في اللغة والخط معا؛ ومن المحتمل جدا أن يجتمع التوقيف والاصطلاح في هذه الأمور مجتمعة كما ألمح إلى شيء من ذلك القلقشندي[125].

وكيفما كان الأمر فقد وقع النهي عن تغيير رسم المصحف بأشكال حروفه ونقطه ومحذوفه وزائده[126]، وأخذ الناس ومنهم رواة اللغة والأدب بإصلاحات الخط الأخيرة التي ابتكرها اللغويون لضبط ألفاظ الشعر واللغة.

وإذا كان الأمير عبيد الله بن زياد[127] قد احتاج إلى إضافة ألفي حرف في رسم المصحف حتى تستقيم له قراءته والاستفادة منه، فلا شك أن غيره من أوساط الناس وعامتهم، من العرب والعجم والمولدين، عدا العلماء المختصين، أحوج منه إلى هذه الحروف وغيرها من أدوات ضبط كتابة الكلمات والنطق بها، وهو ما سيحول

---

(124) تاريخ ابن خلدون_ المقدمة ص 350 (فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية).

(125) صبح الأعشى 9/3 ، وانظر (الفهرست) ص 24.

(126) انظر (البرهان) 376/1، 379 ، و (الإتقان) 167/2 ، وما سبق في ص 135.

(127) كانت نشأته بالبصرة في أسرة فارسية ورث عنها لكنتها ولحنها اللذين رافقاه طيلة حياته، وكانا السبب في نقط المصحف على يد أبي الأسود كما تقول بعض الروايات، ومع ذلك فقد كان من الخطباء البلغاء. ولعل معايبه، ومنها اللحن، مبالغ فيها بسبب جبروته وبطشه . انظر (البيان والتبيين) 134/1، 210/2، و(كتاب المصاحف) ص 129، و(المحكم) ص 3.

بينهم وبين التعامل مع النصوص المتقدمة الخالية من هذه الأدوات، وكلما كانت أقدم كانت أبعد من طاقتهم وإدراكهم.

وإذا أضفنا خلو أكثر النصوص النثرية في العصر الجاهلي والقرن الهجري الأول من حروف المد، ومن النقط والشكل، إلى عدم انتظام حروف الكتابة واكتمالها، أدركنا مقدار المشقة والعناء اللذين يعاني منهما متعلمو القرن الثاني الهجري في التعامل مع النصوص المكتوبة في تلك الفترة.

وها هو ذا ابن النديم يقف على عهد جاهلي بخط عبد المطلب، ولكنه يعجز، وهو المتخصص في قراءة الخطوط القديمة، عن نقله بنصه بسبب رداءة الخط على ما يظهر[128]. ويقرر ابن قتيبة أن أكثرية أوجه الاختلاف بين القراء في قراءة القرآن تعود إلى خلوه من النقط والإعجام[129]، وهكذا الاختلاف في نصوص رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم[130]، ولا شيء أحق منها ومن القرآن بضبط نصوصهما الأصلية كما نطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن الخط العربي منذ عرفه العرب، لم يغيروا منه أو يضيفوا إليه شيئا سوى حروف المد واللين ونقط الإعجام وحركات الإعراب والشكل، ولكنه كان متخلفا في أشكال حروفه فحسنوها وطوروها، واستنبطوا منها أنواعا متعددة من الخطوط الفرعية عن طريق التقوير والاستدارة، وكانت مجالا لغريزة الإبداع عند الكتاب والخطاطين، وتخلوا عن الرسم القرآني في غير القرآن، وهو الذي تم في مرحلة من مراحل تطور الخط العربي؛ وكل ذلك دليل على إسهام كتابة المصاحف إسهاما قويا في تطوير حروف الكتابة العربية، وما ازدادت إلا حسنا وجمالا في القرون التالية.

قال أبو حيان التوحيدي ـ وهو أحد مشاهير العلماء الذين احترفوا الوراقة، وتكسبوا من نسخ الكتب في القرن الرابع، وشاركوا إلى ذلك في التأليف في علم

---

(128) الفهرست ص 13-14. وانظر في (مصادر الشعر الجاهلي ..) ص 68 نقد المؤلف لهذا العهد.

(129) تأويل مشكل القرآن ص 24، 36، 57.

(130) انظر نماذج من اختلاف رواياتها في (مجموعة الوثائق السياسية) ص 57 فما بعدها.

الخط ووصف طرقه وأدواته_ قال في مقدمة رسالته في علم الكتابة، متحـــدثا عـــن موضوعها ومصادره فيها، وعن التطورات التي لحقت الكتابة العربية، إلى أن بلغـــت إلى ما بلغت إليه في عصره:

إنه سمع جل ما أورده في رسالته « من الأفاضل، وأصحاب الأقـــلام البارعـــة، وأرباب الخطوط اليانعة، مما التقطته أيدي الأقلام من ترتيب الحروف على أحسن نظام، من رقة اللطافة، ودقة الظرافة ممن تقدموا، وكانت العبرة في زمانهم بتعيين قواعد الخـــط الكوفي بأنواعه، وهي اثنتا عشرة قاعدة: ... الإسماعيلي، والمكي، والمدني، والأندلـــسي، والشامي، والعراقي، والعباسي، والبغدادي، والمشعب، والريحاني، والمجرد، والمـــصري؛ فهذه هي الخطوط العربية التي كان منها ما هو مستعمل قديما، ومنها قريبة الحـــدوث، **وأما هذه الطرائق المستنبطة فهي مروية عن الصحابة**، حتى اتصلت بابن مقلة وياقوت وغيرهم، وهم تفننوا فيهـــــا بحسب اجتهادهم »[131].

فهو يلخص هنا مراحل تطور الخط العربي منذ بداية الإسلام، ويبرز أهمية عمـــل الصحابة في ذلك أثناء ممارستهم لكتابة المصاحف وغيرها، وأن الأمر يتعلق بعلم تنظـــيم الحروف على أشكال وأنظمة بدأها المتقدمون، وتفنن فيها المتأخرون، وكانـــت مجـــالا للابتداع والاختراع من هؤلاء وأولائك، حتى انتهت إلى أنواع متميزة من الخطوط، ثم ينص صراحة على أنها كلها مروية بطريقة أو بأخرى عن الصحابة الكرام.

أثر القرآن في تطوير مواد الكتابة وأدواتها :

وكما كان للقرآن أثر كبير في تطوير الخط العربي كما رأينا، كان له أثر قوي أيضا في تطوير أدوات الكتابة والبحث الدائم عما هو مؤهل منها للإتقان والتخليد والبقاء، فقد كانت الكتابة في الجاهلية وصدر الإسلام على أدوات لا يقوى أكثرها على مقاومة الزمن، ومغالبة عوامل الفناء والضياع، كالعسب والأحجار والعظـــام

---

[131] رسائل أبي حيان التوحيدي: رسالته في علم الكتابة ص 41-42 . ويلاحظ أن ياقوتاً المشهور بجودة الخط هو ياقوت المستعصمي، وقد توفي سنة 698 هـ ، كما توفي ياقوت الحموي سنة 626 هـــ، وقد تقدم عليهما أبو حيان المتوفى سنة 414 هـ، فإما أن هناك خطاطا بغداديا آخر معاصر لأبي حيان اسمه ياقوت، وإما أن في النص اضطرابا وخللا.

والألواح، وهي المواد نفسها التي كتب عليها القرآن[132]. وهي قمينة بأن تشل قدرات الكتاب في إظهار براعة خطوطهم وجمالها.

قال ابن النديم: « والعرب تكتب في أكتاف الإبل واللخاف، وهي الحجارة الرقاق البيض، وفي العسب عسب النخل »[133]، وكانوا يكتبون أيضا على الرَّق[134]، والقرطاس[135]، وعلى المهارق[136]الفارسية، ولم يرد ذكر أي منها في القرآن إلا الرق والقرطاس[137]، وهو ما يشهد لهما بالتداول والشيوع منذ العصر الجاهلي، وبأنهما أكثر صلاحية من غيرهما لتخليد الآثار وطول البقاء .

والظاهر أنهما كانا معروفين في مكة بسبب احتكاك قريش بالروم في الشام ومصر، وكان الروم يستعملونهما بكثرة في صكوكهم ومراسلاتهم؛ قال ابن النديم: «والروم تكتب في الحرير الأبيض والرق وغيره، وفي الطومار المصري»[138]؛ وهو يقصد القرطاس المصري الذي «يعمل من قصب البردي»[139]، وكانوا يستوردونه من مصر[140]. وكان الفرس يكتبون على جلود الحيوانات اكتفاء بما تنتجه بلادهم من المواد الصالحة للكتابة عليها[141].

---

[132] انظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني ..) ص 16–18، و (مصادر الشعر الجاهلي ..) ص 77 فما بعدها.

[133] الفهرست ص 37.

[134] الرق: الجلد الرقيق المدبوغ. ومن الجلد نوعان آخران يسميان القضيم والأدم (اللسان) (رق)، و (قضم)، و(أدم).

[135] القرطاس : الغالب أنه ورق البردي المصري . (اللسان) (قرطس).

[136] المهارق : جمع مُهرق، فارسي معرب، وهو ثوب حرير أبيض، يسقى الصمغ ويصقل، ويكتب فيه، وقد ورد ذكره في شعر الحارث بن حلزة. (اللسان) (هرق).

[137] الطور 3/52 ، والأنعام 7/6 ، 91.

[138] الفهرست ص 37.

[139] المصدر السابق ص 37.

[140] فتوح البلدان ص 241، و (عيون الأخبار) 1/ 198.

[141] الفهرست ص 37 ، و (الوزراء والكتاب) ص 138.

وأكثر رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسائل الخلفاء الراشدين الـــتي وصلت إلينا مكتوبة في الجلود والقراطيس، ويدل على ذلك ما نص عليه الرواة عند روايتهم لأكثر من رسالة. قال أبو عبيد، وهو يقدم لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل دومة الجندل: « أما هذا الكتاب فأنا قرأت نسخته، وأتاني به شيخ هناك مكتوبا في صحيفة أدم بيضاء، فنسخته حرفا بحرف »[142]. وروى ياقوت عن أحد أهل بلدة دَما[143] أنه قال: « جاءنا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قطعة من أدم »[144]. وكثيرا ما نجد أمثال هذه العبارة مقرونة برسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين.

ومن النادر أن تجد رسالة منقولة عن العسب أو الأحجار أو الألواح[145]، وفي ذلك أكبر دليل على ضياع أكثر الرسائل والعهود التي كتبت في هذه المواد، الـــتي يسرع إليها الفناء ، وتستعصي على الحفظ والصيانة في البيئة العربية التي يغلب عليها عدم الاستقرار، قبل إنشاء المدن الكبرى والمكتبات الخاصة والعامة.

والظاهر أن الكتابة على تلك المواد كانت بدافع الضرورة، بسبب ندرة الورق والجلد، وصعوبة الحصول عليهما في هذه الفترة المبكرة من عمر الدولة الإسلامية، مع الحاجة الملحة إلى مواد الكتابة لنسخ القرآن وتناقله، فكان استعمال تلك المـــواد الأوليـــة مؤقتا، ريثما يتم الحصول على ما هو أفضل منها وأصلح للتخليد والبقاء.

ولعل في ذلك ما يوضح بعض أسباب الإلحاح المستمر على جمـــع القـــرآن المكتوب في تلك المواد الأولية، خوفا عليه من الضياع، ثم الاستغناء عنها بعد تمـــام عملية الجمع، وتداول الناس للمصاحف المكتوبة على الأوراق والجلود، فلم نعثر في ما اطلعنا عليه من النصوص على ذكر أي مصحف كامل مكتوب علـــى العظـــام والأحجار وعُسب النخل.

---

[142] كتاب الأموال ص 208، وقد سبق التعريف بدومة الجندل في ص 111 حاشية رقم3.

[143] دَما : بلدة بنواحي عُمان، كانت من أسواق العرب المشهورة. (معجم البلدان) 461/2.

[144] معجم البلدان 461/2.

[145] انظر (كتاب الأموال) ص 348 حيث يذكر كتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بلال مكتوبا في جريد نخل، جاء به ورثة بلال إلى عمر بن عبد العزيز.

وما سمي المصحف مصحفا إلا لأنه كتب منذ بداية جمعه في صحف مجموعة في ديوان، والديوان هو مجتمع الصحف[146]، ويبدو أن طهارتها الظاهرة، إلى جانب خفة محملها وسهولة استعمالها، من الأمور التي رشحتها لكتابة القرآن عليها، خلافا لغيرها من المواد المشبوهة الأصل كالعظام والجلود مثلا.

وفي عهد الدولة الأموية كان القرطاس المصري الأداة الشائعة المفضلة في دواوين الدولة، وعند الخلفاء والأمراء، ورثوا استعماله عن الروم البيزنطيين، وكانوا يبعثون به من دمشق إلى مختلف الأقطار الإسلامية[147]، ولم يزاحمه غيره من الورق، وهو الخراساني أو الصيني[148]، إلا في عهد المنصور العباسي. روى البلاذري عن المدائني قال: « وأخبرني مشايخ من الكتاب أن دواوين الشام إنما كانت في قراطيس، وكذلك الكتب إلى ملوك بني أمية في حمل المال وغير ذلك، فلما ولي أمير المومنين المنصور أمر وزيره أبا أيوب الموريانى[149] أن يكتب الرسائل بحمل الأموال في صحف، وأن تصفر الصحف، فجرى الأمر على ذلك »[150].

ومع ذلك فقد كان الرق يستعمل جنبا إلى جنب مع القرطاس في دواوين الدولة وكتابة المصاحف وغيرها من مجالات الكتابة والتأليف، ولم يستغن عنه ولا عن القرطاس في أي فترة من الفترات، قبل إنشاء مصنع الورق في بغداد على عهد هارون الرشيد، أما غيرهما من المواد البدائية للكتابة فمن النادر أن نجد لهما ذكرا في العهدين الأموي والعباسي، إلا ما كان من الألواح[151] التي استمر استعمالها أداة

---

(146) اللسان (دون)، وانظر بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني ..) ص 16 حاشية رقم 5.

(147) الطبقات الكبرى 400/5.

(148) انظر (الفهرست) ص 38.

(149) سليمان بن مخلد الموريانى الخوزي أبو أيوب، تولى وزارة المنصور بعد خالد بن برمك، وكان قبل ذلك كاتبا لبعض آل المهلب، فتمكن من المنصور وغلب عليه، ثم نقم عليه هذا وقتله سنة 154 هـ (الوزراء والكتاب) ص 97 فما بعدها و (الفخري) ص 175-176 ، و (وفيات الأعيان) 410/2-414.

(150) فتوح البلدان ص 451 ، وانظر (الوزراء والكتاب) ص 138.

(151) روي مثلا عن أبي عبيدة (– 207 هـ) أنه قال: « اختلفت إلى يونس أربعين سنة املأ كل يوم ألواحي من حفظه » (مراتب النحويين) ص 44، وكانت الألواح تطلق على الأكتاف والعظام التي يكتب عليها، ثم غلب إطلاقها على صفائح الخشب. انظر (اللسان) (لوح).

لتقييد النصوص من أعراب البادية، وفي مجالس العلم والرواية وتعليم الصبيان، وهو ما استمر تقليدا متبعا إلى اليوم في مجالس تحفيظ القرآن.

قال ابن خلدون: « وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقتصروا على الكتاب في الرق، تشريفا للمكتوبات وميلا بها إلى الصحة والإتقان؛ ثم طما بحر التأليف والتدوين، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه، وضاق الرق عن ذلك، فأشار الفضل بن يحيى[152] بصناعة الكاغد، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذه الناس من بعده صحة لمكتوباتهم السلطانية والعلمية، وبلغت الإجادة في صنعه ما شاءت »[153].

ويؤكد ابن النديم أن أكثر ما احتوت عليه الدواوين العباسية في القرن الثاني الهجري من وثائق ومدونات كانت في جلود. قال: « أقام الناس ببغداد سنين لا يكتبون إلا في الطروس، لأن الدواوين ذهبت في أيام محمد بن زبيدة، وكانت في جلود، فكانت تمحى ويكتب فيها »[154].

نستنتج مما سبق أن الآثار النثرية المكتوبة على الرق، ومنها القرآن، أكثر بقاء وأطول عمرا، وتأتي بعدها الآثار المكتوبة على القرطاس المصري، ثم المكتوبة على الورق الخراساني أو الصيني على حداثة عهدهما في الدول الإسلامية، وأن جل ما

---

(152) الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك أبو العباس، أحد كبار وزراء هارون الرشيد، ولاه قبل الوزارة خرا سان والشرق كله إلى بلاد الترك، وكلفه بتربية ولده محمد، ثم حبسه مع إخوته بعد نقمته عليهم، فبقي محبوسا إلى أن مات سنة (193هـ). (الوزراء والكتاب) ص 189 فما بعدها، و(تاريخ الطبري) 8/ 230، 240، 242، 255، 257 فما بعدها، 341. و(تاريخ بغداد) 344/12. و(وفيات الأعيان) 27/4.

(153) تاريخ ابن خلدون _ المقدمة ص 352.

(154) الفهرست ص 38. والطروس : جمع طِرس، وهي الصحيفة التي تصلح لتكرار الكتابة عليها بعد محوها. (اللسان) (طرس).

كتب على المواد الأخرى الشائعة في البيئة العربية أكثر تعرضا للتلاشي والـــضياع، وخاصة أن معظم الرواة لم يعتنوا بحفظها وجمعها وتدوينها لأسباب عديدة[155]، بل إن ما كتب على الرق نفسه تمتد إليه يد الفناء بسبب عجز بعض الرواة عـــن فـــك رموز كتابته، كما يستفاد من الطريقة التي نقل بها ابن النديم عهدا جاهليا بخط عبد المطلب[156]، أو بسبب النهب والفتن، مثل تلك التي حلت بالدواوين العباســـية في الفتنة الأخوية بين الأمين والمأمون، كما نص على ذلك ابن النـــديم، وفيهـــا مـــن النصوص العباسية والأموية والإسلامية والجاهلية ما انتقل إليها بالغلبة والإرث مـــن السابقين[157]، أو لسبب آخر غير ما ذكر.

وقد قص علينا ابن النديم (ــ 385 ﻫ) في خبر عجيب[158]، وهو من علمـــاء القرن الرابع الهجري، كيف اطلع على مجموعة من النصوص والأخبار المقيدة علـــى المواد المذكورة، بخطوط بعض علماء القرن الثاني، ومنها ما هو بخط علـــي بـــن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهم، وما هو بخطوط بعض كتاب الـــنبي صلى الله عليه وسلم، وكانت مكتوبة على «جلود فُلجان[159]، وصكاك، وقرطاس مصر، وورق صيني، وورق تهامي، وجلود أدم، وورق خرا ســـاني..» وذكـــر أن «الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملا أدرسها وأحرفها»[160].

فقد امتد العمر بهذه المواد الكتابية منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وســـلم وصحابته ومنذ القرن الثاني إلى عهد ابن النديم، بفضل الحرص على صيانتها والمحافظة

---

(155) انظر ما سبق في ص 145، و بحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني ..) ص 4 فما بعدها.

(156) انظر (الفهرست) ص 13-14.

(157) انظر (الطبقات الكبرى) 342/5 ، و (شرح أصول اعتقاد أهـــل الـــسنة والجماعـــة) 382/1، و(الكامل) لابن الأثير 235/5.

(158) الفهرست ص 66-67.

(159) فسرها في ص 37 من كتابه بأنها جلود الحمر الوحشية.

(160) الفهرست ص 67 ، وقد نقل أبو حيان التوحيدي خبرا شبيها بهذا الخبر، ولكنه لم يبين نوع المـــادة التي كتبت عليها النصوص التي وقف عليها . انظر (البصائر والذخائر) 534/2 ، وانظر أيضا (تهذيب تاريخ دمشق) 356/3 ، وبحثنا (أثر القرآن في نشأة النثر الفني ...) ص 30-31.

عليها، ومقاومتها لعوامل الاندثار والتلاشي على كثرتها، من حروب وتنقلات ونهب وسلب؛ وقد أثارت فضول ابن النديم واستغرابه، لا بما احتوت عليه من معلومات ونصوص، فقد كان أكثرها معروفا شائعا متداولا في الكتب قبل عصره، ولكن ببقائها إلى عصره، بالصورة نفسها التي كتبها بها أصحابها على المواد التي كتبوها عليها؛ وكم كان ندمه شديدا على أنه لم يعثر لها على أثر، بعد أن توفي الرجل الذي وقف عليها عنده.

فكل ذلك يفسر ندرة النصوص التي استمر وجودها وتداولها إلى عصر التدوين، سواء كانت منقولة مباشرة عن أصولها المكتوبة أم مروية عمن نقلها عنها من المؤرخين والأدباء والكتاب، ويبرز في الوقت نفسه أهمية كتابة المصاحف ونسخها في تحديد مواد الكتابة الخطية العربية، والبحث الدائم فيها عما هو أصلح لطول البقاء وكثرة الاستعمال.

فهرس المصادر والمراجع

ـ القرآن: رواية ورش لقراءة نافع..

ـ آلهة مصر العربية، د. علي فهمي خشيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (-911 ه)، نشر المكتبة الثقافية ببيروت سنة 1973.

ـ أثر القرآن في نشأة النثر الفني وتطوره إلى نهاية العصر الأموي، أطروحتنا المرقونة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب.

ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء، لابن القفطي (ـ 646 هـ)، دار الآثار للطباعة، بيروت، بدون تاريخ.

ـأخبار القضاة، لوكيع محمد بن خلف (ـ 306 ه)، تحقيق عبد العزيز محمد المراغي، عالم الكتب، بيروت، ط 2، بدون تاريخ.

ـ الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار (ـ 256 ه)، تحقيق د. سامي مكي العاني، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد 1972.

ـ الاشتقاق، لابن دريد (ـ 321 ه)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1991/1.

ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي، دار الجيل 1973 لبنان.

ـ الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني (ـ 323 ه)، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية سنة 1368 ه

ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1984/7.

ـ الأمم السامية: مصادر تاريخها وحضارتها، د. حامد عبد القادر. دار نهضة مصر بالقاهرة 1981.

ـ الإنباه على قبائل الرواة، لابن عبد البر (ـ 463 ه)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1985/1.

ـ أيام العرب في الجاهلية، جمعه محمد أبو الفضل إبـــراهيم وعلـــي محمـــد البجاوي، طبعة دار الفكر..

ـ البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي(- 794 ه)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت ط 2/ 1972.

ـالبصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (ـ 414 ه)، تحقيـــق د. إبـــراهيم الكيلاني، مطبعة الإنشاء بدمشق سنة 1964.

ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحـــاة، للـــسيوطي (ـ911 ه)، تحقيـــق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط 1964/1.

ـ بلوغ الأرب في أحوال العرب،لمحمود شكري الألوسي(ـ1924).

ـ البيان والتبيين، للجـــاحظ (ـ 255 ه)، تحقيـــق عبـــد الـــسلام هـــارون، القاهرة، ط 1968/3.

ـ تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبـــد الحلـــيم النجـــار وآخرين، دار المعارف بمصر.

ـ تاريخ بغداد، للخطيـــب البغـــدادي (ـ 463 ه)، دار الكتـــاب العـــربي بلبنان، بدون تاريخ.

ـ تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، ترجمـــة محمـــود فهمـــي حجـــازي وفهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ تاريخ ابن خلدون،(الجزء الأول = المقدمة)، 1971. بدون ذكر تاريخ الطبع ومكانه.

ـ تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجـــري، د. نجيـــب محمـــد البهبيتي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط 1967/3..

ـ تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملـــوك، محمـــد بـــن جريـــر الطـــبري (ـ310 ه)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.ط 4.

ـ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ـ 276 ه)، تصحيح إسماعيل الخطيـــب السلفي، دار الكتاب العربي بلبنان.

ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلميـــة بالمدينة المنورة، ط 1981/3..

ـ تقييد العلم، للخطيب البغـــدادي، تحقيـــق يوســـف العـــش، دار إحيـــاء السنة النبوية، ط 1974/2.

ـ تهذيب الأسماء واللغات للنووي (– 676 ه)، قسمان. دار المكتبة العلميـــة ببيروت، بدون تاريخ.

ـ تهذيب تاريخ دمشق، لابن عـــساكر (ـ 571 ه)، الـــشيخ عبـــد القـــادر بدران، دار المسيرة، ط 1979/1.

ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني.

ـ جمهرة النسب، هشام بن الكلبي (ـ204ه)، تحقيـــق د. حـــسن نـــاجي، عالم الكتب، مكتبة النهضة المصرية، ط1993/1.

ـ الخصائص، لأبي الفتح ابـــن جـــني (ـ 392 ه)، محمـــد علـــي النجـــار، مطبعة دار الكتب المصرية، ط 1952/2.

ـ دراسات في التراث العربي، د. محمد عبد القادر أحمد، نشر مكتبة الأنجلـــو المصرية، ط 1979/1.

ـ ديوان عدي بن زيد، تحقيـــق محمـــد جبـــار المعيبـــد، دار الجمهوريـــة، بغداد، 1965.

ـ رسائل أبي حيان التوحيدي، جمع وتحقيق إبراهيم الكـــيلاني ، دون ذكـــر مكان الطبع وتاريخه.

ـ رسائل إخوان الصفاء .. دار صادر، بيروت سنة 1957.

ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى الـــسقا وآخـــرين، دار إحيـــاء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

ـ شرح أصول اعتقاد أهـــل الـــسنة والجماعـــة، لهبـــة الله بـــن منـــصور اللالكائي(ـ418 ه) تحقيق أحمد سعد عثمان، دار طيبة بالرياض،ط 1985/2.

ـ شرح ما يقع فيه التصحيف، لأبي أحمد العسكري (ـ 382ه)، تحقيق السيد محمد يوسف، مطبعة جامعة دمشق، 1981.

ـ الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، د. يحيى شامي، دار الفكر اللبناني، ط 1986/1.

ـ الشعر والشعراء، لابن قتيبة (ـ 276 ه)، تحقيق مفيد قميحة ونعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1985/2.

ـصبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي (ـ 821 ه) تحقيق محمد حسين شمس الدين. دار الفكر ط 1987/1.

ـ طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي (ـ 231 ه)، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة 1974.

ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد (ـ 230 ه)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد (الملحق)، تحقيق زياد محمد منصور، المجلس العلمي للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط1983/1.

ـ طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر،ط 1984/2.

ـ طبقات النسابين، بكر أبو زيد، دار الرشاد، الرياض، ط1984/1.

ـ العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط 1977/8.

ـ عنوان الدليل من مرسوم خط التتريل، لابن البناء المراكشي (ـ 721ه)، تحقيق هند شلبي ، دار الغرب الإسلامي، ط 1990/1.

ـ عيون الأخبار لابن قتيبة، مصور عن طبعة دار الكتب. المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، (تراثنا).

ـ فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري (ـ 279 ه)، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ببيروت، 1978.

ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، لمحمد بن علي ابن طباطبا (ـ 709 ه)، دار بيروت، 1966.

ـ فصول في فقه اللغة، رمضان عبد التواب.

ـ فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر بالقاهرة، 1973.

ـ الفهرست، لابن النديم (ـ385ه)، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، بدون تاريخ.

ـ الفهرست، لابن النديم، تحقيق رضا-تجدد، طهران، 1971.
ـ الفهرست ، لابن النديم (ـ 385 ه)، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، بدون تاريخ.
ـ فهرست ما رواه عن شيوخه، لمحمد بن خير الإشبيلي (ـ575 ه)، دار الآفاق الجديدةببيروت، 1973.
ـ فوات الوفيات، لابن شاكر (ـ 764 ه)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973.
ـ في تاريخ العرب قبل الإسلام، سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية، بيروت 1976.
ـ القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ـ817 ه)، مطبعة مصطفي البابي الحلبي بمصر، ط 1952/2.
ـ كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (ـ 362 ه)، دار إحياء التراث العربي، ط 1997/2، (13 مجلدا مع الفهارس).
ـ كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ـ 224 ه) تحقيق محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية ببيروت، ط 1986/1.
ـ كتاب أيام العرب قبل الإسلام، لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، جمع وتحقيق ودراسة د. عادل جاسم البياتي.
ـ الكتابة العربية والسامية، لرمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1981/1.
ـ كتاب الكتّاب لابن درستويه (ـ 347 ه)، تحقيق إبراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي، دار الكتب العلمية بالكويت، ط 1977/1.
ـ كتاب المصاحف، لعبد الله بن أبي داود السجستاني، دار الكتب العلمية ببيروت، ط 1985/1.
ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد (ـ 630 ه)، دار صادر، بيروت، 1965.
ـ لسان العرب، لابن منظور (ـ 711 ه)، دار صادر، بدون تاريخ.
ـ لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلى للطباعة، بيروت، ط 1971/2.

ـ مجموع فتاوى ابن تيمية، مكتبة المعارف بالرباط، ط 1981/2.
ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، د. محمد حميد الله- دار النفائس، بيروت، ط 1985/5.
ـ المحبَّر، لمحمد بن حبيب (ـ 245 ﻫ)، تحقيق دة. إلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، عن طبعة 1361 ﻫ .
ـ المحكم في نقط المصاحف، لعثمان بن سعيد أبي عمرو الداني (ـ 444 ﻫ)، تحقيق د. عزة حسن، دار الفكر بدمشق، ط 1986/2.
ـ مختارات ابن الشجري، هبة الله أبو السعادات العلوي (ـ 542 ﻫ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر بالقاهرة، 1975.
ـ المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين، د. نجيب محمد البهبيتي، دار الثقافة بالدار البيضاء، ط 1978/1.
ـ مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي (ـ351 ﻫ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، عن الطبعة الثانية لسنة 1974.
ـ مروج الذهب.. للمسعودي (ـ 346 ﻫ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بالقاهرة، ط 1964/4.
ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي (ـ 911 ﻫ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، المكتبة العصرية ببيروت،1986.
ـ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، ط 1978/5.
ـ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، (ـ 626 ﻫ)، مصور عن طبعة أحمد فريد الرفاعي لسنة 1938، دار إحياء التراث العربي.
ـ معجم ألقاب الشعراء، د. سامي مكي العاني، مكتبة الفلاح، دبي، الإمارات المتحدة، ط 1982/1.
ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي (ـ 626 ﻫ)، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بدون تاريخ.
ـ معجم ما استعجم، لعبد الله بن عبد العزيز البكري (ـ 487 ﻫ)، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة عالم الكتب، بيروت، ط 1983/3.

ـ المعرَّب من الكـــلام الأعجمـــي، لأبي منـــصور الجـــواليقي (ـ 540 ه)، تحقيق د.ف. عبد الرحيم، دار القلم بدمشق، ط1990/1.

ـ معرفة القراء الكبار، للذهبي (ـ 748 ه)، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ط 1969/1.

ـ المعارف، لابن قتيبة، تـــصحيح محمـــد إسماعيـــل الـــصاوي، دار إحيـــاء التراث العربي، بيروت، ط 1970/2.

ـ المفضليات، للمفضل بـــن محمـــد الـــضبي (ـ 178 ه)، تحقيـــق أحمـــد محمود شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط1979/6.

ـ مقدمة ابن الصلاح، لأبي عمرو عثمان بن عبـــد الرحمـــان(ـ642 ه) دار الكتب العلمية ببيروت، 1978.

ـ المقنع في مرسوم مصاحف أهل الأمصار، لأبي عمرو الداني، تحقيق محمـــد أحمد الدهان، دار الفكر 1983.

ـ المعلقات سيرة وتاريخا، نجيب محمد البهبيتي، الدار البيضاء.

ـ من اسمه عمرو من الشعراء، محمـــد بـــن داود بـــن الجـــراح (ـ 296 ه) تحقيق د. عبد العزيز ناصر المانع، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 1991/1.

ـ المنتظم ..، لابن الجوزي، حيدر آباد الدكن، ط 1/ 1358 ه .

ـ المنمق في أخبار قريش، لمحمد بن حبيب، تحقيق خورشيد أحمد عارف، عالم الكتب ببيروت، ط 1985/1.

ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجـــال، للحـــافظ الـــذهبي (ـ748 ه)، تحقيـــق علي محمد البجاوي، دار المعرفة بلبنان، ط 1963/1.

ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات عبـــد الرحمـــان بـــن محمـــد الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، 1967.

ـ نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، د. حسين نـــصار، مكتبـــة النهـــضة العربية بالقاهرة، ط 1966/2.

ـ نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية.. فوزي سالم عفيفي، وكالة المطبوعات، الكويت.

ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب،دار الشروق ط 1980/4.

الفصل الثالث

الأصول المكتوبة لقصة يوم ذي قار وحياة عدي بن زيد ---------- 79

المبحث الأول: صلة حماد الراوية بآثار المناذرة ووثائقهم المكتوبة -------- 81

المبحث الثاني: كتب حماد الراوية ومروياته المصنفة المجموعة من
التراث الجاهلي، ومنه خبر يوم ذي قار وحياة عدي بن زيد ---------- 88

المبحث الثالث: صلة هشام بن الكلبي بآثار المناذرة ووثائقهم
المكتوبة، ومنها قصة يوم ذي قار وأخبار عدي بن زيد---------- 92

المبحث الرابع: الطبري يستشهد بمرويات هشام ومصنفاته في تاريخ
الفرس والمناذرة ---------- 98

المبحث الخامس: كتب هشام بن الكلبي عن الجاهلية وأيامها، وعن
المناذرة وعدي بن زيد العبادي---------- 100

المبحث السادس: أبو الفرج الأصفهاني ينقل روايته من كتب هشام
ذات الأصول المكتوبة ---------- 100

خاتمة ---------- 105

ملحـــق..... 109

ـ أثر كتابة القرآن وتدوين المصحف في تطوير الخط العربي خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة ---------- 111

ـ أصل الكتابة الخطية العربية ومكان ظهورها:---------- 111

ـ رأي القدماء ---------- 111

ـ رأي المعاصرين ---------- 115

- التوفيق بين الرأيين ---------- 116

ـ أوجه النقص والقصور التي عالجها كتاب المصاحف في الخط العربي:---------- 119

ا ـ غموض حروف الكتابة الناشئة، وعدم طواعيتها للاستعمال السهل الكثير الذي يقتضي الوضوح والسرعة---------- 120

ب ـ خلو حروف الكتابة الأولى من النقط والشكل لتمييز الحروف المشتبهة بعضها عن بعض---------- 131

ج ـ خلو الكتابة الأولى من صور أصوات المد التي ينطبق فيها الصوت المنطوق على الحرف المكتوب ---------- 136

ـ أثر كتابة القرآن في تطوير مواد الكتابة وأدواتها ---------- 143

ـ فهـــرس المصادر والمراجـــع ---------- 151

- فهرس المحتويات ---------- 159